عبد العزيز الشناوي

رجال ذكرهم القرآن

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢



مكتبة الإيمان : ت/٣٥٧٨٨٢

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَىَّ لَاتُشْرِكْ بِاللهِ
إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(1) صدق الله العظيم .

(1) لقمان : ١٢ ، ١٣

لقمان الحكيم

كانت الشمس تصب لهيبها على كل شيء فتفصد العرق من جسد لقمان - هو لقمان بن عنقاء بن مزيد بن صارون ابن أخت أيوب عليه السلام وقيل ابن خالته - وهو يجمع الحطب . كان عبداً حبشيا وكان يعمل نجارا .

غطت حبات العرق الوجه الأسود فمسحها لقمان بثيابه وراح يعمل وهو سعيد فالسعيد من وجد نفسه فى خلوة يشتغل بها عن الناس انقطاعا إلى طاعة الله عز وجل واقرارا له بالعبودية فليست العزلة الجسدية التى ينقطع فيها الناس عن الناس ولكنها عمل من أعمال القلب الطاهر .

وكان لقمان يعمل للقين بن جسر وكان سيده يلعب النرد - الطاولة - يقامر عليه وكان على باب داره نهر جار . اشترى لقين - من بنى إسرائيل - لقمان بثلاثين مثقالا ونش - نصف مثقال - وكان ببلاد مدين أيلة فى عصر داود عليه السلام - ولد لقمان على عشر سنين من ملك داود عليه السلام -.

لعب لقين بن جسر بالنرد على أن من قمر - غلب فى لعب القمار - صاحبه شرب الماء الذى فى النهر كله أو افتدى منه وان هو قمر صاحبه فعل به مثل ذلك فقمر الرجل لقين بن جسر فقال له القامر - الغالب - :

اشرب مافى النهر وإلا فافتد منه .

فقال لقين بن جسر : فلتسلنى الفداء .

قال القامر : عينيك أفقأهما وجميع ماتملك .

قال لقين بن جسر : أمهلنى يومى هذا .

قال القامر : لك ذلك .

وجلس لقين بن جسر حزينا كئيباً فلما رجع لقمان وقد حمل حزمة من حطب على ظهره سلم على سيده فلم يرد عليه فوضع لقمان مامعه وعاد إلى لقين بن جسر وكان إذا رآه عبث به ويسمع منه الكلمة الحكيمة فيعجب منه . فجلس لقمان إليه وقال :

مالى أراك كئيباً حزيناً ياسيدى ؟ .

فأعرض عنه لقين بن جسر فقال لقمان :

مالى أراك كئيبا حزينا يا سيدى ؟

فأعرض عنه فقال لقمان له الثالثة مثل ذلك فأعرض عنه لقين بن جسر فقال لقمان :

أخبرنى فلعل لك عندى فرجا .

فقص لقين بن جسر على لقمان القصة . فقال لقمان :

لاتغتم ياسيدى فإن لك عندى فرجا .

فتساءل لقين بن جسر فى لهفة : وما هو ؟ .

قال لقمان :

إذا أتاك الرجل فقال لك : أشرب مافى النهر فقل له : أشرب مابين ضفتى النهر أو المد ؟ فإنه سيقول لك : اشرب مابين الضفتين فإذا قال لك ذلك فقل له : احبس عنى المد حتى أشرب مابين الضفتين فإنه لايستطيع أن يحبس عنك المد وتكون قد خرجت مما ذكرت .

فعرف لقين بن جسر أنه قد خرج من ذلك المأزق وأن لقمان قد صدق فطابت نفسه . ولما أصبح جاءه الرجل القامر فقال له :

يالقين ف – فعل أمر من وفى يفى – لى بشرطى .

فقال لقين بن جسر : نعم .. أشرب ما بين الضفتين أو المد ؟.

قال الرجل القامر : لا بل ما بين الضفتين .

قال لقين بن جسر : فأحبس عنى المد .

فتساءل الرجل القامر : كيف أستطيع ؟ .

فخصمه – غلبه فى الخصومة – لقين بن جسر ورضى عن لقمان وأصبح يهش له كلما رآه .

وذات يوم قال لقين للقمان : اذبح لى شاة .

فذبح لقمان له شاة . فقال لقين بن جسر : ائتينى بأطيب مضغتين – عضوين – فيها .

فأتاه باللسان والقلب .

فتساءل لقين بن جسر : أما كان فيها شىء أطيب من هذين ؟ .

قال لقمان : لا .
فسكت عنه . ثم قال له يوما : اذبح لى شاة .
فذبح لقمان لسيده شاة . فقال له : الق أخبث مضغتين فيها .
فرمى لقمان باللسان والقلب . فعجب لقين بن جسر وتساءل :
أمرتك أن تأتينى بأطيب مضغتين فيها فأتيتنى باللسان والقلب وأمرتك أن تلقى أخبثهما مضغتين فألقيت باللسان والقلب ؟ .
فقال لقمان : إنه ليس بأطيب منهما – اللسان والقلب – إذا طابا – صلحا – ولا أخبث منهما إذا خبثا
قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** ﴾[1] أعطاه العزيز المنان الحكمة والفقه والاصابة والفهم والتعبير والعلم فى القول فى غيره نبوة .
قال رسول الله ﷺ :
« لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة وخيره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق فقال : رب ان خيرتنى قبلت العافية وتركت البلاء وان عزمت على فسمعا وطاعة فإنك ستعصمنى . فقالت الملائكة بصوت لايراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن بأشد المنازل وأكدرها يغشاه المظلوم من كل مكان ان يعن فبالحرى أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة .ومن يكن فى الدنيا ذليلا فذلك خير من أن يكون شريفا . ومن يختر الدنيا على الآخرة ة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومه فأعطى الحكمة فانتبه يتكلم بها . ما أوتى لقمان ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلا صمصامة سكيتا طويل التفكير عميق النظر . لم ينم نهارا قط ولم يره أحد يبزق ولا يبول ولا يغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك وكان لا يعيد منطقا نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيذها إياه أحد وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويفكر ويعتبر فبذلك أوتى ما أوتى » .
وكان لقمان الحكيم يحتطب للقين بن جسر كل يوم حزمة حطب . فقال

---
(١) لقمان : ١٢ .

لرجل ينظر إليه :

إن كنت ترانى غليظ الشفتين – كان ذا مشافر – فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض .

وعمل لقمان الحكيم راعيا لسيده لقين بن جسر . ورفع الله عز وجل لقمان الحكيم بحكمته . رآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له :

ألست عبد بنى فلان وكنت ترعى الغنم بالأمس ؟ .

فقال لقمان الحكيم : بلى .

فتساءل الرجل : فما بلغ بك ماأرى ؟ .

قال لقمان الحكيم : قدر الله وأدائى الأمانة وصدق الحديث وترك مالايعنينى .

ووقف رجل على لقمان الحكيم وهو فى مجلس ناس يحدثهم فقال له : أنت لقمان ؟

قال لقمان الحكيم : نعم .

قال الرجل : أنت عبد بنى الحسحاس ؟

قال لقمان الحكيم : نعم .

قال الرجل : أنت راعى الغنم ؟

قال لقمان الحكيم : نعم .

فتساءل الرجل : أنت الأسود ؟

قال لقمان الحكيم : أما سوادى فظاهر فما الذى يعجبك من أمرى ؟ .

قال الرجل : سعى الناس إليك ورضاهم قولك . وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك ؟ .

قال لقمان الحكيم :

ياابن أخى إن سمعت إلى ما أقول لك كنت كذلك : إن الذى صيرنى إلى ماترى غض بصرى وكفى لسانى وعفة طعمتى وحفظى فرجى وقولى بصدق ووفائى بعهدى وتكرمى ضيفى وحفظى جارى وتركى مالايعنينى فذلك الذى صيرنى إلى ماترى .

وعمل لقمان الحكيم خياطا .

وأعتق لقين بن جسر لقمان فعمل قاضيا فى بنى إسرائيل فى زمان داود عليه السلام .

وكان ابن لقمان – مشكم وقيل أنعم – وامرأته كافرين فأخذ يعظهما . فقال لمشكم :

﴿ يَابُنَىَّ لاَتُشْرِكَ بِاللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] أوصى لقمان ابنه أنعم الذى هو أسفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل مايعرف ولهذا أوصاه أولا أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ثم قال له محذراً : ان الشرك لظلم عظيم – أى أعظم الظلم – ولما نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيَمانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾[2] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا :

أينا لا يظلم نفسه ؟ .

أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ .

فقال رسول الله ﷺ :

« **إنه ليس بذلك ألا تسمع لقول لقمان : ﴿ يابُنَى لَاتُشْرِكُ بِاللهِ إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾** » .

وأردف : ﴿ **وَوَصَّيْناَ الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَّى الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً** ﴾ »[3].

ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين وقد خص الله عز وجل الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب وللأب واحدة قال رجل لرسول الله ﷺ :

يانبى الله من أبر ؟ .

قال نبى الرحمة ﷺ :

« **أمك** » .

---

(١) لقمان : ١٣ .
(٢) الأنعام : ٨٢ .
(٣) لقمان : ١٤ ، ١٥ .

ثم تساءل الرجل : ثم من ؟ .

قال الهادى البشير ﷺ :

« **أمك** » .

ثم قال الرجل : ثم من ؟ .

قال طبيب القلوب والعقول ﷺ :

« **أمك** » .

فقال الرجل : ثم من ؟ .

قال أبو القاسم ﷺ :

« **أبوك** » .

فجعل خاتم الأنبياء ﷺ للأب الربع من المبرة .

وأن تشكر لله على نعمة الإيمان وللوالدين على نعمة التربية فقد حملتك أمك جهداً على جهد – مشقة – وضعفاً على ضعف وإرضاعك بعد وضعك فى عامين وتذكر تعب الأم فى تربيتك ومشقتها فى سهرها ليلا ونهارا وإن حرص الوالدان وبذلا من جهد فى اقناعك بأن تشرك بالله فلا تطعهما وصاحبهما خلال رحلة الحياة القصيرة بالمعروف والصحبة الكريمة والمعاملة الطيبة .

وقال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه :

يابنى اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة .

ووعظ لقمان ابنه أنعم فقال :

يابنى ان أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره .

وقال :

يابنى انه لا يتم عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال : الكبر منه مأمون والرشد فيه مأمول يصيب من الدنيا القوت وفضل ماله مبذول التواضع أحب إليه من الشرف والذل أحب إليه من العز لايسأم من طلب الفقه طول دهره ولا يتبرم من طلب الحوائج من قبله يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه والخصلة العاشرة التى شاد بها مجده وأعلى ذكره أن يرى جميع أهل الدنيا خيراً منه وأنه أشرهم وان رأى خيراً منه سره ذلك

وتمنى أن يلحق به وان رأى شراً منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فهنالك حين استكمل العقل .

ووعظ مشكم فقال : غاية الشرف والسؤدد حسن العقل ومن حسن عقله غطى ذلك جميع ذنوبه وأصلح ذلك مساويه ورضى عنه مولاه .

وحدث لقمان الحكيم ابنه أنعم عن العقل فقال :

اعقل عن الله عز وجل فإن أعقل الناس عن الله عز وجل أحسنهم عملا وان الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابده . يابنى ماعبد الله عز وجل بشيء أفضل من العقل .

وقال : يابنى اتق الله ولا ترى الناس أنك تخشى الله عز وجل ليكرموك بذلك وقلبك فاجر

وسمع لقمان الحكيم ابنه أنعم يثرثر فقال له يوما :

يابنى ماندمت على الصمت قط وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب .

وسأل مشكم أباه يوما : ياأبت أى الخصال من الإنسان خير ؟

قال لقمان الحكيم : الدين .

فقال مشكم : فإذا كانت اثنتين ؟

قال لقمان الحكيم : الدين والمال .

فقال مشكم : فإذا كانت ثلاثا؟ .

قال لقمان الحكيم : الدين والمال والحياء

فتساءل أنعم : فإذا كانت أربعا ؟

قال لقمان الحكيم : الدين والمال والحياء وحسن الخلق .

فقال مشكم : فإذا كانت خمسا ؟

قال لقمان الحكيم : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء .

فقال أنعم : فإذا كانت ستا ؟

قال لقمان الحكيم : يابنى إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقى تقى ولله ولى ومن الشيطان برى .

ثم قال لقمان لابنه ناصحا : يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً .

ثم أردف : يابنى إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها .

وسئل لقمان الحكيم : أى الناس شر ؟ .

فقال لقمان الحكيم : الذى لا يبالى أن يراه مسيئا .

وقال لقمان الحكيم : ان الشر للشر خلق .

ورأى لقمان الحكيم يوما عصفورا فقال لابنه مشكم :

يابنى اياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه .

وقال لقمان الحكيم لابنه : بنى لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسيطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء . مكتوب فى الحكمة - التوراة - الرفق رأس الحكمة . كما ترحمون ترحمون وكما تزرعون تحصدون . أحب خليلك وخليل أبيك .

وأردف : لا خير لك فى أن تعلم مالم تعلم ولما تعلم بما تعمل قد علمت مثل ذلك رجل احتطب حطبا فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .

وذات يوم وضع لقمان الحكيم جرابا من خردل إلى جانبه وأخذ يعظ ابنه مشكم وعظا ووصايا نافعة ليتمثلها الناس ويقتدوا بها ويخرج من الجراب خردلة خردلة حتى نفد الخردل وقال : يابنى لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر - تشقق -

فسأل مشكم أباه عن الحبة التى تقع فى سفل البحر أيعلمها الله ؟ فقال لقمان الحكيم : ﴿ **يَابُنَىَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْفِى السَّمَاوَاتِ أَوْفِى الْأَرْضِ يَأْتِى بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾[1] أخبر لقمان الحكيم ابنه بقدرة الله العلى القدير فلو كان للإنسان وزن مثقال حبة خردل - إن الحس لا يدرك لها ثقلا إذلا ترجع ميزانا - فلو كانت هذه الحبة محصنة محجبة فى داخل صخرة صماء أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السماوات والأرض فإن الله عز وجل يأتى بها - مظلمة أو خطيئة - لأنه لا تخفى عليه خافية

---

(١) لقمان : ١٦ .

ولايغرب عنه مثقال ذرة فى المساوات ولا فى الأرض فهو لطيف العلم خبير بدبيب النمل فى الليل البهيم ولو كانت هذه الحبة رزقا جاء بها سبحانه وتعالى حتى يسوقها إلى من هى رزقه فقد أحاط العزيز الحكيم بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا سبحانه لا شريك له .

قال خاتم الأنبياء ﷺ : « **لا تكثر همك مايقدر يكون وما ترزق يأتيك** » .

وقال لقمان الحكيم : ﴿ **يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾[1].

وصى لقمان الحكيم ابنه بعظم الطاعات وهى الصلاة فهذا طريق العقيدة المرسوم توحيد الله عز وجل وشعور برقابته وتطلع إلى ماعنده وثقة فى عدله وخشية عقابه ثم انتقل إلى دعوة الناس واصلاح حالهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والصبر على شدائد الدنيا كالأمراض والإبتلاء فى المال والابتلاء فى النفس عند الإقتضاء وغيرها فحقيقة الإيمان الصبر على المكاره . وعزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

ويستطرد لقمان الحكيم فى وصيته التى يحكيها لنا القرآن العظيم : ﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾[2].

يطلب لقمان الحكيم من ابنه أن يقبل على الناس متواضعا مؤنسا مستأنساً لا يتكلم معهم وهو معرض عنهم بوجهه إذا كلموه ولا يمشى مختالا معجبا فى نفسه فخورا على غيره فالفخور الذى يعد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى الذى قال : ﴿ **وَلَاتَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾[3]. فمن يمشى فى خيلاء متكبر جبار عنيد يبغضه الله تعالى . قال رسول الله ﷺ : « **الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس** » .

وقال الحق جل وعلا : ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ**

(١) لقمان : ١٧ .

(٢) لقمان : ١٨ .

(٣) الإسراء : ٣٧ .

﴿ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[1].

ويواصل لقمان الحكيم وصية ابنه لكيون متواضعاً فيقول له : امش مشيا مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلا وسطا بين بين فالقصد مابين الأسراع والبطء فى المشى . يقول خاتم الأنبياء ﷺ :

« **سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن** » .

ونصح لقمان الحكيم ابنه أن لا يبالغ فى الكلام ولا يرفع صوته فيما لا فائدة فيه ولا يتكلف رفع الصوت ويأخذ منه ما يحتاج إليه فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذى . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمؤذن – أبو محذورة سمرة بن معير – تكلف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مربطاؤك – مابين السرة إلى العانة – .

وان أقبح وأنكر الأصوات وأوحشها لصوت الحمير والحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه .

لذا قال الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ : « **وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا** » .

فكل هذه وصايا المراد بها التواضع . يقول نبى الرحمة ﷺ مرغبا فى التواضع : « **رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره** » .

وقال النبى ﷺ :

« **طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة** » .

ودخل الفاروق عمر بن الخطاب المسجد يوما فوجد أعلم الناس بالحلال والحرام معاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ فسأله : ما يبكيك يامعاذ ؟ .

قال معاذ بن جبل :

حديث سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : « **ان**

---

(1) لقمان : ١٩ .

اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة » .

وقال ﷺ :

« رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال : اللهم أنى أسألك الجنة لأعطاه **الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا »** .

وقال أبو القاسم ﷺ :

– إن من أمتى لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهما أو فلسا لم يعطه ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ولو سأله الدنيا لم يطعه إياها و لم يمنعها إياه لهوانه عليه ذو طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره » .

وقال خاتم الأنبياء ﷺ :

« إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصف لهم حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » .

وظل لقمان الحكيم يعظ امرأته وابنه مشكم حتى أسلما .

قال لقمان الحكيم لابنه : يابنى أن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال : يابنى اياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذلة بالنهار .

لقد أتاه الله عز وجل الحكمة والعلم والتعبير فجاء الناس من كل مكان إلى بابه يسألونه فوجدوا عنده علما و لم يأته طالب علم إلا تمنى أن يقبل رأسه .

ووعظ لقمان الحكيم ابنه أنعم فقال :

يا بنى إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام – ثم اجلس فى ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فإن أفاضوا فى ذكر الله فاجل سهمك معهم وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

يابنى ان الله إذا استودع شيئا حفظه .
وسئل لقمان الحكيم : الدنيا لمن هى ؟ .
قال لقمان الحكيم :
لمن تركها .
فقيل له :
الآخرة لمن هى ؟ .
قال لقمان الحكيم :
لمن طلبها .
ثم قال : الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها .
وحمل إلى ملك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحاً شديدا فقال للقمان وكان عنده :
كيف ترى هذا ؟ .
قال لقمان الحيكم :
أراه مصيبة أو فقرا .
فتساءل الملك فى عجب :
كيف ؟
قال لقمان الحكيم :
إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه لم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر .
ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق ذلك القدح فعظمت مصيبة الملك عليه فقال :
صدق لقمان الحكيم ليته لم يحمل إلينا .
وقال لقمان لابنه ناصحا :
يابنى لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حلمك - تتغذى به يبقى الحلم ويزول الطيش -
ورأى لقمان الحكيم رجلا سمينا فقال له :
أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فمم هى ؟ .

قال الرجل السمين :

من أكل لباب البر وصغار المعز وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان .

وقال لقمان الحكيم لابنه مشكم ناصحا :

يابنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه وضعف فى عقله وذهاب مروءته وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به .

وجاء رجل للقمان الحكيم فقال له :

قد جئت خاطبا لمودتك .

فقال لقمان الحكيم :

إن جعلت مهرها ثلاثا فعلت .

فتساءل الرجل :

وماهى ؟ .

قال لقمان الحكيم :

لا تسمع على بلاغة ولا تخالفنى فى أمر ولاتوطئنى عشوة .

ورأى لقمان الحكيم ابنه يوماً وهو يأكل بنهم فقال له :

يابنى لا تأكل شبعا فوق شبع فإنك ان تنبذه للكلب خير من أن تأكله .

لقد نصح لقمان ابنه بعدم الأسراف فى كثرة الأكل وكثرة الشرب فإن ذلك يثقل المعدة ويثبط الإنسان عن خدمة ربه والأخذ بحظه من نوافل الخير .

وجاء الوارث بن عمرو بن حارثة من البادية إلى رسول الله فقال :

إن امرأتى حبلى ماذا تلد ؟ وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ؟ وقد علمت ما علمت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا ؟ وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله خواتيم سورة لقمان .. قال رسول الله ﷺ :

« إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم تنته حتى يقدمها ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَافِى الْأَرْحَامِ وَمَاتَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَماتَدْرى نَفْسٌ بأَىّ

أرضٍ تَمُوتُ انَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ »[1].

وقال خاتم الأنبياء ﷺ :

« مفاتيح الغيب خمس : ﴿ انَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَافِى الْأَرْحَامِ وَمَاتَدْرِى نفسٌ مَاذَا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ »[2].

ولقد ذكر الله تعالى لقمان فى سورة أربع وثلاثين آية تتلى إلى يوم يبعثون .

قال رسول الله ﷺ :

« اتخذوا السودان – الأفارقة – فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم والنجاشى وبلال المؤذن – بلال بن رباح – » .

وظل لقمان باقيا مظهراً للحكمة والزهد إلى أيام يونس بن متى عليه السلام بأرض نينوى من بلاد الموصل .

---

(١) لقمان : ٣٤ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[1]

صدق الله العظيم .

(١) الأنعام : ٧٤ - ٧٥

آزر

أقبل المنجمون وأصحاب النجوم والسحرة والكهنة والقافة والحازة على قصر النمرود بن كنعان كما تقبل الفراشات على الضوء فلما اجتمعوا خرج عليهم النمرود بوجه يكسوه القلق وقال :

طلع على كوكب فذهب بضوء الشمس والقمر ففزعت فزعاً شديدا فتبادل المنجمون والسحرة النظرات .. ألهذا جمعهم ؟ ان الأمر خطير .

قال المنجمون والسحرة والكنهة :

أيها الملك أمهلنا حتى نخرج وننظر إلى طالع السنة .

فأشار النمرود بن كنعان بيده .. فخرجوا إلى بستان القصر .. وتطلع المنجمون إلى السماء ورنوا إلى النجوم التى تتلألأ على صدر السماء كما يتلألأ العقد الماسى على صدر حسناء .. ثم قلبوا شفاههم وهزوا رءوسهم .. ورجعوا إلى النمرود بن كنعان فلما رآهم مقبلين سألهم :

ماوراءكم ؟ .

قال المنجمون والكهنة والسحرة :

انا نجد غلاما يولد فى قريتك هذه يفارق دينكم ويكسر أصنامكم ويكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك – كان قصر النمرود ببابل الكوفة – يسفه أحلامنا ويزيل عبادتنا النيران والأنوار والأصنام .

فتساءل النمرود بن كنعان :

ما العمل ؟ .

قال الكهنة والمنجمون والسحرة :

لا يولد مولود الاذبح .

قال النمرود بن كنعان :

نعم الرأى .

كان ملكه قد أحاط بمشارق الأرض ومغاربها فهل يبعث إلى كل امرأة حبلى

فيحبسها عنده فلا يولد مولود إلا ذبح ؟ أم يخرج من قريته إلى قرية أخرى ويأمر ألا يولد مولود ذكر إلا ذبح حتى يذح كل الغلمان ؟ .

وخرج النمرود من بابل ولم تترك زبانيته مولودا إلا ذبحوه .. حتى بدت للنمرود حاجة فى المدينة لم يأمن عليها إلا آزر – تارخ بن ناحور – .

من هو آزر ؟ آزر لقب لصنم كان يعبده اسمه آزر وقيل اسمه تارخ فآزر له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم وكان من أهل كوثى من قرية بالسواد سواد الكوفة وكان يصنع الأصنام وقيل إنه كان من أهل حران وكان أهل حران أرض الكشدانيين وكانوا يعبدون الكواكب السبعة والأصنام وكان على كل باب من دمشق القديمة هياكل لكواكب منها ويعملون لها أعيادا ويقدمون إليها القرابين وقيل أن آزر كان وزيراً للنمرود وكان آزر موضع سره وثقته .

بعث النمرود إلى كل امرأة حبلى فحبسها عنده إلا ماكان من أميتالى زوجة آزر فإن آزر لم يعرف الحبل فى بطنها وذلك أنها كانت جارية – فتاة حدثة – ولم يترك جنود النمرود غلاما ولد فى تلك السنة إلا ذبحوه .

ولما وجدت أميتالى الطلق خرجت ليلا من قرية برزة بغوطة دمشق إلى جبل يقال له قاسيون فدخلت مغارة فولدت مولوداً سمته إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى دارها .. ثم كانت تطالعه فى المغارة لتنظر ما فعل إبراهيم فتجده حيا يمص أبهامه فهل جعل الله عز وجل رزقه فيها ما يجيئه من مصه ؟ وكان يشب فى اليوم ما يشب غيره فى الشهر والشهر كالسنة . لقد جعل الله فى أصابعه العسل واللبن والماء وسأل آزر زوجته عن حملها فقالت أميتالى : ولدت غلاما سميته إبراهيم .

وروت أميتالى لزوجها قصة ولادة إبراهيم فى مغارة بجبل قاسيون وكان عمر آزر آن ذاك خمسا وسبعين سنة . ولما علم آزر بولادة إبراهيم كتم أمره حتى نسى النمرود بن كنعان ذكر ذلك وراح يتردد على المغارة التى فيها إبراهيم .. ولما انصرمت خمسة عشر شهراً قال آزر لأهله :

ان لى ابنا قد خبأته أفتخافون عليه الملك ان أنا جئت به ؟ .

قالوا : لا .

وذهبت أميتالى إلى المغارة ليلا فقال لها إبراهيم :

أخرجينى أنظر .

فأخرجته عشاء فنظر إلى السماء وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال :

إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى آله غيره

وانطلق آزر إلى المغارة فأخرج إبراهيم فلما نظر إلى الدواب وإلى الخلق – لم يكن رأى قبل ذلك غير أبيه وأمه – جعل يسأله أباه عما يراه فيقول آزر :

هذا بعير أو بقرة أو غير ذلك .

فقال إبراهيم : مالهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب .

وكان أهل بابل ينعمون برغد العيش ويتفيئون ظلال النعمة ولكنهم كانوا يتخبطون فى ظلام الضلالة فقد نحتوا الأصنام بأيديهم ثم جعلوا منها آلهة عكفوا على عبادتها .

وكان النمرود قابضا على زمام الملك فى بابل وحاكما مستبداً برأيه وأقام من نفسه آلها ودعا الناس إلى عبادته وتعظيمه فلم يجدوا إلا الخضوع له .

وكان آزر يصنع الأصنام التى يعبدها أهل بابل ويعطيها إبراهيم ليبيعها فكان إبراهيم يذهب إلى المعبد الكبير ويقف ببابه ويقول :

من يشترى مالا يضره ولا ينفعه ؟ .

فلا يشتريها منه أحد .. فيحملها وينطلق إلى النهر فيصوب رءوسها فيه ويقول : إشربى .

هل كان يستهزىء بقومه ؟ اراد أن يخبرهم أنهم يعبدون حجارة صماء وتماثيل جوفاء لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرا ؟ وفشا – انتشر – ذلك عن إبراهيم فى قومه فلما علم آزر غضب غضباً شديداً وطلب منه أن يرعى الغنم يسوقها أمامه فى الصباح ويعود بها فى المساء فتعلم إبراهيم حسن الرعاية والعطف والحنان .

وذات يوم ترك إبراهيم الغنم ترعى الكلأ وسرح بفكره ان أباه يصنع التماثيل والأصنام من الحجارة والخشب ثم يطليها بالزيت والألوان فتكون أشكالاً وألوانا فى صور الحيوانات .. ولكنها لا تتحرك ولا تأكل ولا تشرب .. ووقعت عيناً

إبراهيم على حمل صغير يرضع اللبن من ضرع أمه فتساءل : من الذى خلق هذا الخروف الصغير ؟ ومن الذي خلق اللبن فى ضرع الأم ؟من الذى علم الخروف الصغير كيف يرضع وكيف يأكل ؟ .

ثم نظر إبراهيم إلى نفسه من الذى خلق يده التى تتحرك وتمسك الأشياء ؟ من الذى جعل له عينين يبصران بهما واذنين يسمع بهما ؟ .

ورجع إبراهيم إلى داره شاردا يفكر فى نفسه وفى الغنم وفى الدنيا حوله من خلق كل هذا وصنعها فأحسن صنعتها ؟ فاقترب من أمه بونابنت كربتا فقال لها : يا أماه من خلقنى ؟ ومن ربى ؟ .

قالت أميلة بنت كربتا :

أنا ربك ياإبراهيم .

فقال إبراهيم :

ومن ربك ياأماه ؟ .

قالت أميتالى بنت كربتا :

ربى هو آزر والدك .

فقال إبراهيم :

ومن رب والدى ؟ .

قالت بونابنت كربتا :

عجباً لك ياإبراهيم لماذا تسأل هذه الأسئلة يابنى ؟ ألا تعرف من ربى وربك ورب أبيك ؟ إنه النمرود بن كنعان ملك هذه البلاد .

فهز إبراهيم رأسه وكأنه لم يقتنع بقول أمه وقال :

لا تقولى ذلك .. وإذا كان ماتقولين حقا فمن الذى خلق النمرود ؟ .

فقالت الأم فى حيرة ودهشة :

ماذا أصابك يا إبراهيم ؟ هيا اذهب إلى فراشك لتنام .

وجدت نفسها عاجزة على الرد عليه ؟ قذفها ابنها فى بحر الحيرة ؟ وجدت نفسها تفكر فيما يفكر فيه إبراهيم ؟ لقد علمت بونابنت كربتا أن إبراهيم الذى

يذهب ملكهم على يديه فلما رأته مازال واقفا ولم يذهب إلى فراشه نهرته ولطمته . وعزمت على أن تخبر آزر بما دار بينها وبين إبراهيم .

ولما رجع آزر إلى داره عرف ما حدث بين إبراهيم وأمه فدهش وغضب وقال فى عجب : ياإبراهيم ماهذا الكلام الذى تحدث به أمك ؟ هل لك آله غيرى وغير مولانا الملك النمرود ؟ .

فقال إبراهيم :

هذا ما أفكر فيه ياأبى .

فقال آزر وهو يربت على كتف ابنه ويدفعه نحو فراشه لينام :

دعك من هذه الأفكار .

كيف يترك إبراهيم تلك الأفكار قبل أن يعرف من خلق هذا الكون ؟ .

وذات ليلة خرج إبراهيم من داره ونظر إلى السماء فرأى كوكبا يلمع ويضىء فى الظلام فقال وهو يشير بيده : هل هذا ربى ؟ أليس هذا أفضل من الأصنام التى يصنعها أبى ويزعم أنها آلهة ؟ انه مرتفع فى السماء لم لا نعبده ونقرب إليه القرابين ؟ .

وعاد إبراهيم يحدق النظر إلى الكوكب اللامع أين بريقه ولمعانه ؟ لقد أخذ نوره يخبت شيئاً فشيئاً .. ثم أفل وغاب عن عينيه . أين ذهب الكوكب ؟ أين اختفى كيف يعبده ويصلى له ؟ إن الآله لا يغيب وهذا الكوكب قد أفل وغاب وإبراهيم لا يحب الأفلين .

وبزغ القمر وابتدأ فى الطلوع فأنار الدنيا حوله بالبهجة والصفاء ألا يستحق القمر أن يكون رب الناس ؟ إنه يذهب بظلام الليل لم لا يعبده الناس ويصلون له ؟ ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾[1] .

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ ﴾[2] لقد سأل إبراهيم ربه التثبيت على الهداية .. كيف يعبد الناس آلها تغلب الظلام عليه ؟ كيف يكون ربه آفلا غائباً ؟ ان الرب ينبغى أن يكون حاضرا دائماً .

ورجع إبراهيم إلى داره شاردا حائراً انه مازال يبحث عن آله وخالق هذا

---

(١) الأنعام : ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) الأنعام : ٧٧ .

الكون الكبير ...

واستيقظ إبراهيم مبكراً فساق غنمه نحو المرعى ومازال سؤاله يتردد فى صدره :

من ربى ؟ .

ونظر إبراهيم نحو المشرق فوجد وجه الشمس مستديراً أحمر كأنه كرة كبيرة ملتهبة فحدق النظر إليه فى لهفة ودهشة . ان ضوءها ينتشر هنا وهناك . كلما ارتفعت زادت حرارتها واشتد ضوؤها انها هى التى تحيى النبات وتنبت الزرع وتضىء للناس دنياهم وتبعث فى أجسادهم الدفء والحرارة .. هذه الشمس أكبر من الكوكب الذى رآه وأكبر من القمر .. لم لا يعبدها الناس ويصلون عند ظهورها ويبكون عند غيابها الا يصنع ذلك النمرود وآزر والسحرة والكهنة ؟ ووجد إبراهيم نفسه يقول :

﴿ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾[1].

ومرت فترة ووجد إبراهيم الشمس تنزل من عليائها وتنحدر نحو المغيب .. فعاد يتساءل : أهذا ربى ؟ إن عبدت هذه الشمس فسأكون فى ضلال مثل أبى ومثل مولاه النمرود ولما غابت الشمس وأفلت قال إبراهيم :

﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2].

إن ربه موجود دائما لا يغيب أبدا .. ثم صاح إبراهيم فى فرح : لقد وجدت ربى .

وساق إبراهيم الغنم أمامه وعاد إلى داره فلقيته أمه فقال لها فى سرور : لقد عرفت ربى .. أبشرى يا أماه أتريدين أن تعرفيه ؟ وقبل أن تعلن عن رغبتها فى معرفة ربه أردف إبراهيم : انه الحاضر الذى لا يغيب وهو الذى خلقنى وخلقك وخلق الشمس والقمر وخلق هذا الكون فلم لا نعبده ونصلى له ؟

لقد أتاه الله عز وجل الرشد وهداه إلى الحق فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره أن الله سبحانه وتعالى هو المهيمن على الكون المسيطر على العالم فامتلأ قلبه إيمانا بربه وأصبح ممتلئا بالثقة واليقين بقدرة خالقه مؤمنا بما أوحى الله إليه من بعث

(١) الأنعام : ٧٨ .
(٢) الأنعام : ٧٨ .

الناس بعد موتهم وحسابهم فى حياة أخرى على أعمالهم .

وأراد إبراهيم عليه السلام أن يزداد بصيرة وإيمانا وثقة ويقينا ويرى الحجة الواضحة على البعث والنشور فقال :

﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ﴾[1]؟

لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكا فى احياء الله الموتى وإنما طلب المعاينة والرؤية فالنفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به لذلك قال رسول الله ﷺ :

« ليس الخبر كالمعاينة » .

فقد سأل إبراهيم عليه السلام ربه هذا ليزداد يقينا إلى يقينه فقال الحق جل وعلا :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾[2]؟

ليس الألف هنا استفهاما ولكنها ألف إيجاب وتقرير وتؤمن معناه إيمانا مطلقا .. ولذلك قال إبراهيم عليه السلام :

﴿ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[3].

أى سألتك يارب ليطمئن قلبى بحصول الفرق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا فأراد إبراهيم عليه السلام ذلك أن يترق من علم اليقين إلى علم اليقين ويزداد يقينا - وقد قيل إن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليعلم هل تستجاب دعوته فقال له تبارك وتعالى : أو لم تؤمن أنى أجيب دعاءك فقال إبراهيم : بلى ولكن ليطمن قلبى أنك تجيب دعائى -

ولما كان إبراهيم عليه السلام يقصد إلى أن تطمئن نفسه ويستقر فؤاده أجاب الله عز وجل سؤاله وأمره أن يأخذ أربعة من الطير قيل : هى الديك والطا وس والحمام والغراب ويضمها إليه ليتعرف عليها ويتأمل خلقها ثم يجعلها قطعا صغاراً ويفرقها أشلاء - أعضاء - ويخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب ثم يجعل من ذلك المجموع المختلط جزءا على كل جبل ويقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير فى يده ثم قال :

(١) البقرة : ٢٦٠ .
(٢) البقرة : ٢٦٠ .
(٣) البقرة : ٢٦٠ .

تعالين بإذن الله.

فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمت مثل ماكانت أولا وبقيت بلا رءوس ثم كرر النداء فجاءته سعيا بإذن الله أى عدوا على أرجلهن وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحد منها بغير رأسه تباعد الطائر وإذا أشار إليه برأسه قرب حتى لقى كل طائر رأسه وطارت بإذن الله .. رأى إبراهيم عليه السلام آياته البينة وقدرته الباهرة التى لا يعجزها شىء فى السموات ولا فى الأرض فلم يساوره شك أو خالجه ريب فى قدرة الله على بعث الموتى من مرقدهم ونشرهم من قبورهم سبحانه وتعالى جل ثناؤه إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون .

وأراد إبراهيم عليه السلام أن يدعو إلى عبادة الواحد الأحد فبدأ بأبيه فهو أقرب بالناس إليه وألصقهم به وأولاهم بالهداية وأجدرهم بإخلاص النصيحة فمن البر أن يهديه سواء السبيل ولكن آزر كان يصنع الأصنام ويبدها فكيف يبدأ الدعوة معه ؟ ألا يسفه معبوداته أو يحقر آلهته حتى لا ينفر منه أو يصم أذنيه عن كلامه أويرميه بالعقوق والجحود لابد أن يتلطف فى دعوته مع أبيه فيخاطبه بالقول اللين والأدب الجميل .

بدأ إبراهيم عليه السلام الحديث مع أبيه فقال :

﴿ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَايَسْمَعُ وَلَايُبْصِرُ وَلَايُغْنِى عَنكَ شَيْئاً * يَاأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَاأَبتِ لَاتَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَاأَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[1].

دعا إبراهيم عليه السلام أباه آزر إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بين له بطلان ماهو عليه من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغنى عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟ ثم أخبره أن الله قد أعطاه من الهدى والعلم النافع ومن اليقين والمعرفة بالله وإن كان أصغر سنا من أبيه فهو يهدى أباه إلى سواء السبيل ودين مستقيم فيه النجاة والخير فى دنياه وآخرته وحذره من طاعة الشيطان الذى يأمره ويزين له الكفر .. وقد بدأ

(١) مريم : ٤٢ – ٤٥ .

خليل الرحمن محاورة أبيه بكلمة : ياأبت فهل أراد أن يذكر بنوته ليستثير عطفه ويمس شغاف قلبه ؟ فهل قبل آزر الرشد الذى عرضه عليه ابنه إبراهيم عليه السلام وأخذ بالنصيحة ؟ هدد آزر ابنه إبراهيم وتوعده وقال :

﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾[1] .

أبى آزر متابعة طريق الهداية وأصر على عناده وكفره وتجاهل بنوته وأنكر حدبه عليه وشفقته به وقال محقراً لشأنه منكرا عليه نصيحته :

أترغب عن آلهتى ياإبراهيم إلى غيرها ؟ لئن لم تنته عن زيغك وترجع عن غيك وتثب إلى رشدك لأرجمنك بالحجارة ولأرمينك بهجر – الهجر من القول : الفاحش منه – القول فاحذر شدة غضبى وتجنب إثارة سخطى واعتزلنى سالم العرض لا يصيبك منى معرة فليس لك فى دارى مكان ولن تجد فى قلبى بقية من عطف أو بقية من إحسان .

كيف قابل خليل الرحمن تهديد أبيه آزر ؟ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد وقابله بصدر رحب وتلقى وعيده بنفس مطمئنة ثم أجابه بما ينبىء عن بره بأبيه واخلاصه النصح له فقال :

﴿ سَلَام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾[2].

حياه إبراهيم عليه السلام تحية مفارق وودعه وانصرف وهو كاسف البال محزون الفؤاد لأن دعوته لم تجد آذانا مصغية عند أبيه واعتزله لئلا يكون معينا له على الكفر .

خاب رجاء خليل الرحمن حين أنكر عليه أبوه آزر دعوته وحز فى نفسه أن يدعوه إلى الرشاد والخير والهداية فلا يستجيب إلى دعائه وتبرأ منه ولكنه أخذ يفكر فى متابعة دعوته إلى الحق ليمحو العقائد الفاسدة ولو ناله من وراء ذلك أذى كثير ولحقه شر مستطير .

وأراد إبراهيم عليه السلام أن يستدرج قومه إلى مجادلته ويستنزلهم إلى مجال

---

(1) مريم : ٤٦ . (2) مريم : ٤٧ .

محاورته وهو ذكى الفؤاد صائب الرأى ثاقب الفكر .. سألهم : ماذا تعبدون ؟

قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين وراحوا يفيضون الحديث فى شأن تلك الأصنام وأطالوا فى جوابهم .. كان ملهما فى استفساره شأنه شأن الطبيب الذى حاول أن يتحسس الداء ليصف الدواء .. وهو فى ذلك يضيق على قومه دائرة الجدل ويجمع أشتات الخلاف فى شىء واحد فإذا أوهن – أضعف – أساسه وقوض أركانه وأوضح بطلانه ألا يكون قد ألزمهم الحجة ؟ ولا يجدون مهربا من اتباعه وطاعته ؟ .

تساءل خليل الرحمن : هل يسمعونكم إذ تتوجهون إليهم بالعبادة ؟ هل يبصرونكم حين تقدمون لهم الطاعة ؟ هل ينفعونكم أو يضرون ؟ . .

هل أراد خليل الرحمن أن يشرك أبصار قومه مع بصائرهم وحواسهم مع أفئدتهم فى تفهم عقيدته لعلهم يرجعون إلى رشدهم ويثوبون عن غيهم ؟ .

قالوا :

﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾[1].

نعبدها تقليدا لأسلافنا .. ما أقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان الذى استدرجهم إلى أن حاكوا آباءهم فى الشرك والكفر وزين لهم عبادة التماثيل والأوثان .. قال إبراهيم عليه السلام :

﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[2].

إنكم فى خسران بعبادة هذه الأصنام فهى جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم .. لقد أقروا أنها لا تسمع داعيا ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا واعترفوا بأنهم ماعبدوا تلك التماثيل إلا اقتداء بآبائهم .. فقالوا : أتنتقص آلهتنا وتسب أصنامنا بالحق أم كنت من اللاعبين ؟ .

قال خليل الرحمن : إنى أقول لكم ذلك جاداً لامازحاً فقد جئتكم بالدين القويم وأرسلت إليكم بالهدى والحق المبين فإن ربكم الخليق – الجدير – بالعبادة

---

(١) الأنبياء : ٥٣ .

(٢) الأنبياء ٥٤ آ

هو فاطر السموات والأرض خلقهن وأبدعهن ﴿ **وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾[1] كانت حجة إبراهيم عليه السلام واضحة وضوح الصبح ولكنهم عموا وصدوا وسدوا عن سبيله وأعرضوا عن دعوته . ولما رأى إبراهيم عليه السلام أن أذان قومه صماء وقلوبهم غلف وأنهم مازالوا متعلقين بأوهامهم متمسكين بعبادة أصنامهم قال خليل الرحمن :

يارب إنه ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى .

فأنزل الله سبحانه ثلاثة آلاف ملك فأمهم ثلاثة أيام .

وبيت إبراهيم الشر لأصنام قومه وأقسم ليكيدنها حتى يروا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تدفع الأذى عن نفسها ..

وهم أهل بابل بالذهاب إلى عيدهم وطلبوا من خليل الرحمن أن يرافقهم فى الخروج إلى خارج المدينة وقالوا : أن غداً عيدنا فاخرج معنا .

فنظر إبراهيم عليه السلام إلى نجم طالع وقال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾[2].

كان إبراهيم عليه السلام سقيم النفس كاسف البال يتقطع فؤاده حزنا إشراك قومه ويتميز غيظا لأنهم أعرضوا عن دعوته ولم يلبوا نداءه فنظر إلى نجم طالع وقال : هذا يطلع مع سقمى – سأسقم سقم الموت – .

لقد أشار خليل الرحمن إلى قومه أن مرض وسقم بعدى كالطاعون وكانوا يهربون من الطاعون وهذا تورية وتعريض فادعى العلة ولم تكن به علة ولا مرض ففروا منه خوفا من العدوى وقيل أن قوم إبراهيم عليه السلام قالوا له : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا .

فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم خليل الرحمن فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : انى سقيم أشتكى رجلى

فوطئوا رجله وهو صريع ..

فلما مضوا نادى فى اخرهم : ﴿ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ** ﴾[3].

ومال خليل الرحمن إلى بيت الأصنام وكان بين يديها طعام تركه قومه

---

(١) الأنبياء : ٥٦ .
(٢) الصافات : ٨٩ .
(٣) الأنبياء : ٥٧ .

ليأكلوه إذا رجعوا من العيد أو لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم أو تركوه للسدنة – خدم الأصنام – وقيل إن إبراهيم عليه السلام قرب إلى الأصنام طعاما على جهة الاستهزاء وقال :

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾[1].

كانت المدينة قد خلت من أهلها وسكانها وكان بيت العبادة قد أقفر حتى من كهنته وسدنته فقد خرجوا جميعا إلى ظاهر المدينة ليحتفلون بعيدهم ولم يتخلف عن اللحاق بهم الا خليل الرحمن .. وقد خلا الجو من العيون فأخذ يخاطب التماثيل التى ملأت باحة – ساحة – بيت العبادة متهكما بها ومحقراً لشأنها .. ولكنه لم يجد منها اصغاء ولم يأته منها جوابا وكيف تتكلم الحجارة ومتى كانت الخشب المسندة تعقل ؟ .

راح إبراهيم عليه السلام يمعن الإزدراء لقومه محتقراً تلك الأصنام التى نصبوها آلهة فأخذ يلطمها بيده ويركلها برجله – الركل : الضرب برجل واحدة – ثم تملكته سورة الغضب لدينه واستولت عليه عاصفة الغيظ لربه فتناول فأساً ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾[2] هوى عليها بيمينه أى بالقوة والعدل والطاعة فكسرها وحطم حجارتها وما زال بها حتى جعلها جذاذاً وصيرها حطاماً الاكبيرهم فإنه أبقى عليه ليرجع إليه قومه حتى إذا رجعوا إليه وسألوه عمن انتهك حرمة بيت عبادتهم وكسر آلهتهم .. استبانوا أنها لا تنطق ولا تملك أن تدفع عن نفسها الأذى لعلهم يرجعون إلى رشدهم .

وترك خليل الرحمن بيت العبادة تملأه الحجارة المبعثرة وإمعانا فى السخرية علق الفأس فى عنق صنمهم الكبير وإنصرف عنها وهو مطمئن البال قرير العين فهل استأصل جذور الشر ؟ هل طمس معالم الشرك ؟ .

وقف خليل الرحمن يرقب ما يبدو من قومه وينتظر أثر فعلته فى نفوسهم وأخذ يرتب الكلام معهم ويعد العدة لما قد يرمونه به أو يجادلونه فيه .

ورجعوا من عيدهم فلما دخلوا بيت عبادتهم رأوا ماحل بآلهتهم ومعبوداتهم

(١) الصافات : ٩١ ، ٩٢

(٢) الصافات : ٩٢ .

فبهتوا لهول ما رأوا لما شاهدوا الفأس معلقا فى عنق عظيم الآلهة - الصنم الكبير وتساءلوا :

﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

هل قالوا ذلك على جهة البحث والإنكار ؟ .

قال قائلهم :

﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[2].

لماذا قيل : فتى .. ويقال له إبراهيم ؟ يقصد به التصغير من شأنه ؟ تجهيلهم لأمره ؟ أنه مجهول لا خطر له ؟ فقالوا : من عاب علينا عبادتها وسبها فهو الظالم المجترىء عليها والمحطم لها .

عرفوا من تطاول على آلهتهم واعتدى على معبوداتهم فلماذا لا يوقعوا به من العقاب بمقدار ما إرتكب من وزر وما اقترف من ذنب ؟ فقالوا :

﴿ فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾[3].

لما بلغ الخبز الملك النمرود وأشراف قومه قالوا : كيف تأخذوا ذلك الفتى بغير بينة ؟ .

كرهوا أن يأخذوا خليل الرحمن بغير بينة ؟ قال القوم :

لقد ذكر آلهتنا من قبل ولما عدنا من عيدنا وجدنا آلهتنا جذاذاً .

قال النمرود وأشراف قومه :

ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه ليشهدوا عليه بمقالته ويروا ما يحل به من القصاص .

وكان اجتماع القوم فى صعيد واحد أمنية خليل الرحمن التى طالما يحلم بها ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان مايعتقدون ويريهم البرهان القاطع على فساد ماهم عليه عاكفون .

وأقبل الناس كل يرغب فى القصاص من إبراهيم عليه السلام ويشهدوا عقابه ويروا عذابه ولعلهم يشهدوا طعنه على آلهتهم ليعلموا أنه يستحق العقاب ففى

(١) الأنبياء : ٥٩ .
(٢) الأنبياء : ٦٠ .
(٣) الأنبياء : ٦١

ذلك ارضاء لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر والقصاص منه والفتك به فلا يقدم أحد على مثل ماأقدم عليه بعد ذلك .

جاءوا بإبراهيم عليه السلام وسط هذا الجمع الزاخر .. وسألوه : ﴿ **أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ** ﴾[1]؟ .

وتطلعت إليه العيون التى تموج بالغيظ والحنق .. ونسوا أن هذه الفرصة التى سنحت لبلوغ خليل الرحمن مأربه وللوصول إلى مقصده .. كانوا يتوقعون رده بالنفى أو بالإيجاب .. ولكنه أدار دفة الجدال ناحية أخرى وجرهم إلى طريق لم يقصدوه ليلزمهم الحجة فلعلهم يرجعون إلى عقولهم فتساءل : ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ** ﴾[2]؟

كان خليل الرحمن ذكى الفؤاد صائب الرأى ثاقب الفكر فرماهم بحجة دامغة فصفعهم بها صفعة نبهتهم من غفلتهم وأيقظتهم من غفوتهم .. فراحوا ينظرون ويقبلون بعضهم على بعض وتلاوموا – لام بعضهم بعضا وقالوا : لقد خرجنا إلى ظاهر المدينة وتركناها خالية وكذلك كان بيت العبادة خاليا –

وقالو : إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ فتركتوا آلهتنا لا حافظ لها ولا رقيب عندها .

لم ينكرون أن يكون كبير الآلهة كسر الآلهة الأخرى ؟ ولكن هذا الإعتراف الزام لهم وتنبيها على فساد اعتقادهم .

ثم عادوا إلى جهلهم وحيرتهم وعقد العى ألسنتهم فأطرقوا برءوسهم مفكرين .. ثم استجمعوا شارد عقولهم وتساءلوا : ياإبراهيم ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَاهَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ** ﴾[3].

لقد جاءوا بخليل الرحمن وقد قصدوا إلى التشهير به وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد وما زالوا يصرون على أنها آلهة وهى جذاذ مهشمة ؟ أدركت القوم حيرة سوء ثم نكسوا على رءوسهم فى الفتنة ؟ اقروا بأن آلهتهم لا تنطق حيرة وعجزا ؟ اعترفوا بعجزها وبقصورها عن العلم بما يجرى حولها أو بالشعور بما يقع عليها ؟ .

فقال إبراهيم عليه السلام فى ضيق وعنف على غير عادته وهو الحليم الصبور :

(١) الأنبياء : ٦٢ .
(٢)الأنبياء : ٦٣ .
(٣) الأنبياء : ٦٥ .

﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[1]؟ .

أقام خليل الرحمن على قومه الحجة وألزمهم فكيف لا يتدبرون ماهم فيه من الضلالة والكفر الغليظ الذى لايروج الاعلى جاهل ظالم فاجر ؟ تأفف من ثباتهم على الباطل بعد وضوح الحق ؟ .

ثم عاد إبراهيم عليه السلام يحضهم على الروية والاناة فيما ينطقون والتفكير فيما يدعون ..

كانت على أعينهم غشاوة فلا يبصرون وفى آذانهم ثقل وصمم فلا يسمعون وقلوبهم غلف لا يعقلون .. وغلبهم خليل الرحمن على أمرهم فخافوا إفتضاح حالهم فعدلوا عن المناظرة والجدل وأخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل فعمدوا إلى القوة والبطش والعذاب الغليظ يسترون بها هزيمتهم قال رجل اسمه هيزر من الأكراد – أعراب فارس – : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[2].

هل يعاقبوا خليل الرحمن بالإحراق ولا ذنب له إلا أنه قال : ربى الله ؟ هل إرتكب اثما لأنه أنكر عبادة حجارة وأوثان ؟ ولكن الجهر وإعلان التوحيد بدعوة الناس إليه يزلزل عروش الطغاة ويسلبهم سلطانهم ويكدر صفو حياتهم .

كيف يحرقوا إبراهيم عليه السلام ؟ لماذا لا يصلوه نارا حامية تعادل لظى الحقد المتأجج فى صدورهم ؟ لابد أن تكون نارا هائلة ..

وراح الناس يجمعون الحطب وجعلوا ذلك قربانا لآلهتهم وبراً بمعبوداتهم حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت : إن عوفيت لتجمعن حطبا لحريق إبراهيم .

مكثوا يجمعون الحطب شهراً فوضعوه فى صرح بناه النمرود بن كنعان طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعاً وصنع لهم إبليس المنجنيق .

أشعلوا النار فى الحطب فاضرمت وتأججت وعلا لهيبها وسطع ضوءها وأحمر جمرها حتى أن الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها ولما جعلوا يوثقون

(١) الأنبياء : ٦٧ .
(٢) الأنبياء : ٦٨ .

خليل الرحمن قال : **لا آله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .**

وأشار هيزر – من أعراب فارس من الأكراد – أن يجعلوا خليل الرحمن فى كفة المنجنيق فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين – الإنس والجن – ضجة واحدة :

ربنا إبراهيم ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته .

فقال تعالى :

﴿ إن استغاث بشيء منكم أودعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وإن لم يدع غيرى أنا أعلم به وأنا وليه ﴾ .

وقيدوا إبراهيم عليه السلام ووضعوه فى كفة المنجنيق مغلولا وجروه إلى مكان شاسع – مضرب شاسع – فإستقبله جبريل عليه السلام فقال :

يا إبراهيم ألك حاجة ؟ .

قال خليل الرحمن :

أما إليك فلا .

فقال جبريل عليه السلام :

فأسأل ربك .

قال إبراهيم عليه السلام :

حسبى من سؤالى علمه بحالى .

ولما رموه بالمنجنيق أتاه خُزَّان الماء فى الهواء فقالوا :

ياإبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء .

فقال خليل الرحمن :

لا حاجة لى إليكم .

وأتاه ملك الريح فقال :

لو شئت طيرت النار .

فقال إبراهيم عليه السلام :

لا .

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال :

اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ليس أحد يعبدك غيرى حسبى الله ونعم الوكيل .

وألقى خليل الرحمن فى النار المستعرة وقلبه بالإيمان ممتلىء وثقته بالله شديدة وصلته بالعلى الكبير وثيقة وأمله فى النجاة وطيدة فأنزل الله تعالى زربية من الجنة فبسطها فى الجحيم وأنزل الله ملائكته : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة .. فكانت النار ﴿ **بَرْدًا وَسَلَامًا** ﴾[1] ولم تحرق منه إلا الوثاق – الحبل الذى يوثق به – وكان مع إبراهيم جبريل عليه السلام يمسح وجهه من العرق فلم يصبه شىء غير ذلك .

وأقام خليل الرحمن فى النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار .

قال إبراهيم عليه السلام : **ماكنت أياما قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار .**

وبعث الله عز وجل ملك الظل فى صورة خليل الرحمن فقعد فى النار إلى جانب إبراهيم عليه السلام يؤنسه فمكث النمرود بن كنعان أياما لا يشك إلا أن النار قد التهمت إبراهيم عليه السلام وفرغت منه ثم ركب فمر بالنار وهى تحرق ماجمعوا لها من الحطب فنظر إليها فرأى إبراهيم جالسا فيها إلى جنبه رجل مثله فرجع من مركبه ذلك فقال لقومه : لقد رأيت إبراهيم حيا فى النار ولقد شبه على ابنو لى صرحا يشرف على النار حتى أستثبت .

كان آزر قد تبرأ من ابنه إبراهيم عليه السلام ولكن كاد قلبه ينفطر حزنا عندما ألقى فى النار وكان على يقين أن النار قد أتت عليه وفرغت منه ولكن الفرح ملأ قلبه لما سمع النمرود بن كنعان يذكر أنه رأى إبراهيم سليما فى النار لم يصبه أذى فذهب إلى مكان النار وربا فرحه لما رأى ابنه حيا رفع عنه الطبق وهو فى النار وحده يرشح جبينه فقال :

نعم الرب ربك ياإبراهيم .

لقد قال آزر أحسن شىء قاله ولكنه لم يتبع دعوة ودين ابنه إبراهيم عليه السلام وظل يعبد الأصنام .

---

(١) الأنبياء : ٦٩ .

وبنوا للنمرود صرَحَا فأشرف عليه فاطلع منه إلى النار فرأى إبراهيم وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل فى مثل صورته فناداه نمرود :

ياإبراهيم كبير آلهك الذى بلغت قدرته وعزته أن حال بين ماأرى وبينك حتى لاتضرك ياإبراهيم ؟ هل تستطيع أن تخرج منها ؟ .

قال إبراهيم عليه السلام :

نعم .

فتساءل نمرود :

هل تخشى أن أقمت فيها أن تضرك ؟ .

قال خليل الرحمن :

لا .

فقال نمرود :

فقم وأخرج منها .

فقام خليل الرحمن يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج إبراهيم عليه السلام من النار قال نمرود بن كنعان ياإبراهيم من الرجل الذى رأيت معك فى مثل صورتك قاعداً إلى جنبك ؟ .

قال خليل الرحمن :

ذلك ملك الظل أرسله إلى ربى ليكون معى ، فيها ليؤنس وحدتى وجعلها على برداً وسلاما .

وبهر الناس بتلك الآية الكبرى حتى أوشكوا أن يسلموا زمامهم لخليل الرحمن ويلقوا قيادهم إليه وكادوا يجمعون أمرهم على إتباعه ولكن كثيراً منهم آثر ما ينعم فيه من نعيم الحياة وإستجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به ودفع عنه حر النار وأذى سعيرها على خوف من نمرود وملئهم .. فآمن له ابن أخيه لوط – لوط بن هاران بن تارخ كما آمنت به سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم .. فتزوجها خليل الرحمن .

أخذ القوم يتحدثون عن معجزات إبراهيم عليه السلام الباهرة الخالدة فإنتهى إلى النمرود بن كنعان من ذلك النور الذى بهر به قومه شعاع واقتحمت قصره

موجة من التيار الجارف فخشى أن يكستح خليل الرحمن ملكه ويقوض عرشه فطغى طغيانه وزاد بهتانه فكيف يكيل إبراهيم القدح فى آلهتهم ؟ لماذا يعيب على القوم عبادتها ؟ فدعا الملك النمرود خليل الرحمن إليه .

فلما جاء إبراهيم عليه السلام ووقف بين يديه سأله : ماهذه الفتنة التى أيقظتها وتلك النار التى أشعلتها ؟ وما هذا الآله الذى تدعو إليه ؟ هل تعرف ربا غيرى ؟ هل هناك آله يستحق العبادة دونى ؟ من الذى يعلو مقامه على ويرتفع قدره فوق قدرى ؟ ألا ترى أنى أصرف الأمور وأدبرها ؟ أمرى نافذ وحكمى قاطع فلماذا خرجت على إجماع القوم وانتقضت على معبوداتهم ؟ ماربك الذى تدعو إليه ؟ ومن آلهك الذى تحث الناس على عبادته ؟ .

قال خليل الرحمن فى ثبات وطلاقة لسان : ﴿ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾[1] .

فقال النمرود بن كنعان :

﴿ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ ﴾[2].

هل يعنى النمرود أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر ؟ ما زال يمارى فى جدله ؟ إلى متى يدعى الربوبية ؟ أين هو من عزم النبوة ؟ قال إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾[3].

إن الله سخر الشمس وجعل لها نظاماً لا تحيد عنه فهى تشرق من المشرق فإن كنت كما تدعى قديراً وآلها فغير هذا النظام وأت بها من المغرب .. فدهش النمرود وتحير وكأنه ألقم حجراً .. أفحمته الحجة ؟ ظهر كذبه ووضح بهتانه وبدت جهالته ؟ .

وخاف النمرود بن كنعان أن يثل خليل الرحمن عرشه ويدك قوائم سلطانه وملكه فقال : ياإبراهيم إنى مقرب إلى آلهك قربانا لما رأيت من عزته وقدرته ولما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة .

(١) البقرة : ٢٥٨ .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .
(٣) البقرة : ٢٥٨ .

فقال إبراهيم عليه السلام :

إذا لا يقبل الله منك ماكنت على شيء من دينك

هذا حتى تفارقه إلى ديني .

فقال النمرود بن كنعان :

ياإبراهيم لا أستطيع ترك ملكي ولكني سوف أذبحها

له .

فذبحها النمرود وقد أوجس من خليل الرحمن خيفة وخشي أن يكتسح ملكه ويقوض عرشه ان أعلن له العداء أو كشف له عن البغضاء لذلك أبقى عليه وهو يتربص به الدوائر وينتظر أن تحين له الفرصة للإنتقام منه .

وبعث النمرود جواسيسه ليحذروا الناس إتباع خليل الرحمن ويبعدوهم عن مجلسة فكان خليل الرحمن يرى من التضييق عليه والإضرار به ما يراه المصلحون فى كل أمة فضاقت نفسه بالمقام فى بابل ولكن آزر انطلق بإبنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين بالعراق إلى أرض الشام ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾(١).

كانت أرضاً مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها – لأنها أرض الأنبياء – وهى أرض الكنعانيين .

ووجد خليل الرحمن فى حران الأمان على عبادة ربه – عبادته – فمكث بها ما شاء الله أن يمكث يدعو إلى عبادة الواحد الأحد .

وعم القحط وشمل أرض حران الجدب والغلاء وضاقت سبل العيش فى الشام فرحل خليل الرحمن إلى مصر تصحبه امرأته سارة وكانت ذات جمال باهر وكانت من أحسن الناس وكان القابض على زمام مصر والمسيطر على أمورها أحد ملوك العرب العماليق وكان جباراً من الجبابرة الذين استبدوا بالملك آونة من الدهر فوشى بسارة أحد بطانته فقال : إن فى أرضك هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه .

وأغراه بجمالها وزين له حسنها وحبب إليه إلاستحواز عليها فصادفت هذه

---

(١) **الأنبياء** : ٧١ .

المقالة هوى فى نفس فرعون مصر فدعا إبرايم عليه السلام إليه فسأله :
ماهذه المرأة منك ؟ .

ففطن خليل الرحمن إلى مأربه وعرف مقصده وخاف إن أخبره أنها زوجته بيت الشر له فقال له :

هى أختى .

قال فرعون مصر :

اذهب فأرسل بها إلى .

فانطلق خليل الرحمن إلى زوجته سارة وقال لها : إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فإنك أختى فى كتاب الله وإنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك .

فانطلق بها وقام إبراهيم عليه السلام يصلى .

ذهبوا بسارة إلى قصر فرعون وساقوها إلى مخدعه فزينت بفاخر الثياب وثمين الحلى ولكنها لم تعبأ بهذا الزخرف البراق ولا بذاك البذخ الخلاب فلم ينسها كل ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها . وجلست حزينة فأقبل فرعون مصر فرأى مابها من لوعة وأسى فحاول أن يخفف من حزنها ويؤنس وحشتها وذهب يتناولها بيده فآخذ أخذاً شديداً فقال لها : ادعى الله ولا أضرك .

فدعت الله .. فطلق .. ولكن فرعون مصر عاد إلى رغبته وتناولها الثانية فأخذ أخذاً شديداً فقال : ادعى الله ولا أضرك .

فدعت له فأرسل .. ثم قامت فتوضأت وراحت تصلى وتقول : اللهم ان كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى الأعلى زوجى فلا تسلط على الكافر .

وحاول فرعون مصر الثالثة فأخذ .. فدعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتنى بإنسان ولكنك أتيتنى بشيطان .. أخرجها واعطها هاجر

فأخرجت سارة من قصر فرعون مصر وأعطيت هاجر القبطية خادما لها .

أتت سارة خليل الرحمن وهو قائم يصلى فأومأ بيده : مهيم .

فقالت سارة :

رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر .

قال رسول الله ﷺ :

« لم يكذب إبرايم غير ثلاث : ثنتين فى ذات الله قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾[1] وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[2] وقوله فى سارة : هى أختى ».

وأقام خليل الرحمن بمصر ماشاء الله أن يقيم وكان دمث الخلق لين العريكة وادع النفس دءوبا على العمل فكثر ماله وارتفع ذكره فحسده القوم على مكانته ونقموا عليه وسولت لهم نفوسهم أن تمتد أيديهم إليه بالأذى فرجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن – وهى الأرض المقدسة – التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

ومات آزر بن ناحور بحران وله مائتان وخمسون سنة كافرا لم يؤمن بدين خليل الرحمن .

قال رسول الله ﷺ :

« يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال : ياإبراهيم انظر ماتحت رجليك ؟ فينظر فإذا بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » .

(١) الصافات : ٨٩ .

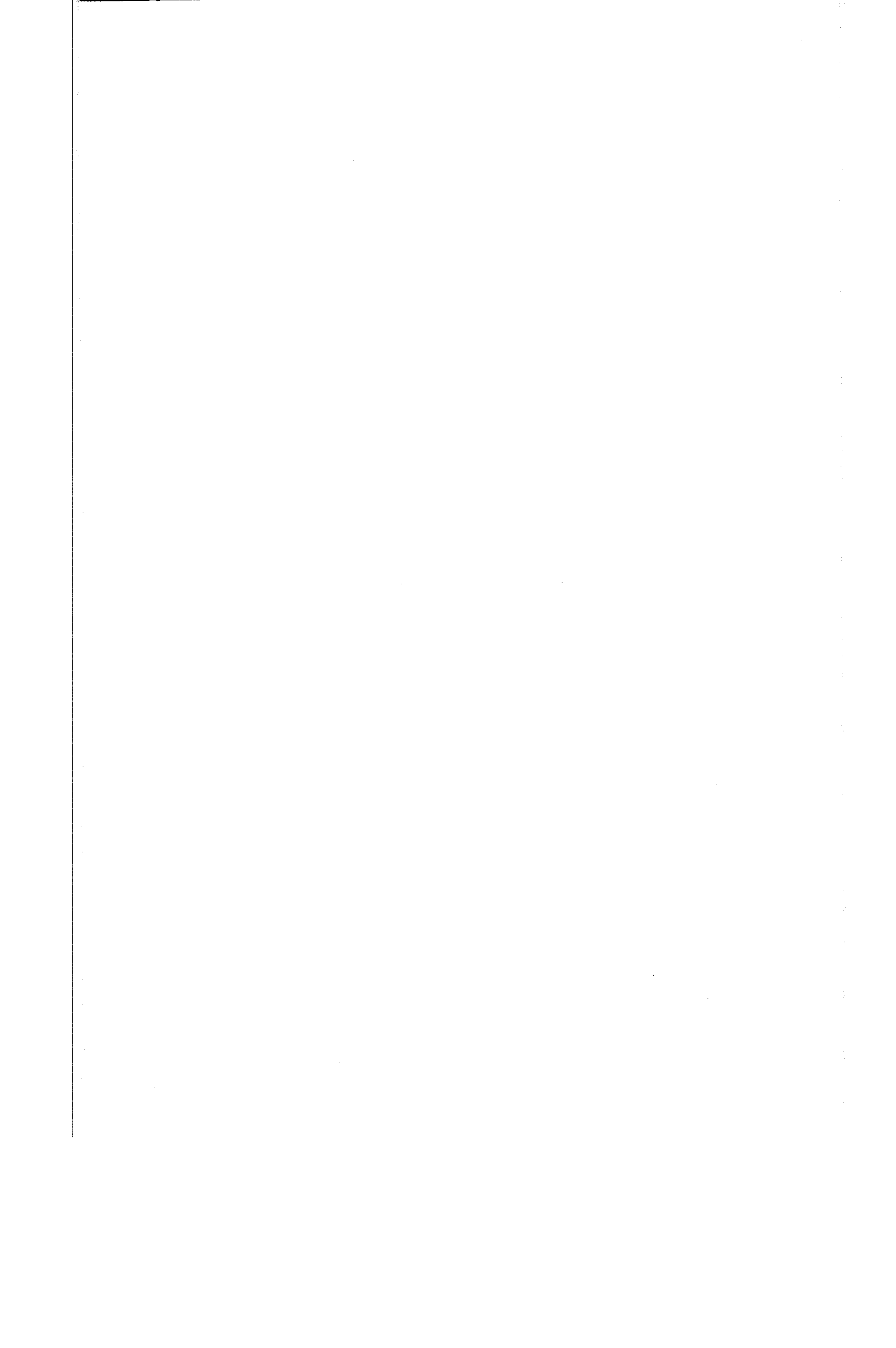
(٢) الأنبياء : ٦٣ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَنَّاً لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنَ تَتَّخِذْ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾[1]

صدق الله العظيم .

---

(١) الكهف : ٨٣ - ٨٦ .



ذو القرنين

ورد اسم ذى القرنين فى سورة الكهف ثلاث مرات .. فمن هو ذو القرنين ؟ .

لما عجز مشركو قريش عن مناقشة وجدال رسول الله ﷺ بعثوا عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث إلى أحبار يهود بيثرب فقالا : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول وقد جئنا لتخبرونا عن صاحبنا – يعنون رسول الله ﷺ – هذا .

ورجع النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أم القرى فقالا :

يامعشر قريش قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد فقد أخبرنا أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم .

فبعثت قريش إلى أبى القاسم ﷺ فجاءهم فقال النضر وعقبة :

يامحمد أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ماهى ؟ .

هل كان تحديا ؟ هل كان اختباراً وإمتحانا ؟ .

وأنزل العليم الخبير قصة أهل الكهف : ﴿ **وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا** ﴾[1]

لقد ذكر الله عز وجل ذا القرنين هذا – كان ملكا من الملوك العادلين – وأثنى عليه فكان غازيا فاتحا مجاهداً محارباً لا يصادف فى طريقه حزناً – مرتفعا من الأرض – إلا سلكه ولا عليا إلا ظهره ولا عدوا إلا هزمه وكسر سلاحه وقص جناحه لا يبالى فى الجهاد الحر ولا البرد ولا السهل ولا الوعر فقد منحه العزيز القدير السلطان المؤيد المظفر المنصور ومكن له فى أرضه .

---

(١) الكهف :٨٣ – ٨٤ .

لماذا سمى ذا القرنين ؟ .

قالوا : كان له قرنين من نحاس فى رأسه .

وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك فارس والروم .

وقيل : لأنه بلغ قرنى الشمس غربا وشرقاً وملك مابينهما من الأرض .

وقال الحسن البصرى : كانت له غديرتين من شعر يطافهما فسمى ذا القرنين .

وقيل : انه دعا ملكا جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه ثم دعاه فدق قرنه الثانى فكسره فسمى ذا القرنين .

وسأل أبو الطفيل على بن أبى طالب عن ذى القرنين فقال :

كان عبدا ناصح الله فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمى ذا القرنين .

لم يكن ذو القرنين نبيا ولا رسولا ولا ملكا ولكن كان عبداً صالحا .

وقيل : إنه انقرض فى وقته – فى حياته – قرنان من الناس .

وقالوا : إنه كان فى رأسه قرنان كالظلفين وهو أول من لبس العمامة ليسترها .

وقيل : لقب بذلك لشجاعته كأنه ينطح أقرانه .

وعن النبى ﷺ : **« سمى ذا القرنين لبلوغه قرنى الدنيا أى شرقها وغربها »** .

ماالسم ذى القرنين ؟ .

كما اختلف فى سبب تسمية ذى القرنين اختلف فى اسمه فقال عبد الله بن عباس : اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد .

وقيل : مصعب بن عبد الله بن قتان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون – غوث – بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبالا بن قحطان .

وقيل أنه كان من حمير وأمه رومية وأنه كان يقال له : ابن الفليسوف لعقله .. وقد أنشد بعض الحميريين فى ذلك شعراً بكونه أحد أجداده فقال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا تدين له الملـوك وتحشد
بلـغ المشارق والمغارب يبتغـى أسباب أمر من حكيم مـرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها   فى عين ذى خلب وثأط حرمد
من بعده بلقيس كانت عمتى   ملكتهم حتى أتاهـا الهدهــد

وقال السهيلى : كان اسمه مرزبان بن مرزبة .

وقال ابن هشام : اسمه الصعب بن ذى مرثد وهو الذى حكم لإبراهيم فى بئر السبع

وقيل : أنه أفريدون بن أسفيان الذى قتل الضحاك .

فهل كان أفريدون ذا القرنين صاحب إبراهيم عليهالسلام الذى ذكره الله تعالى فى كلامه العزيز ؟ فقد ذلل افردون الفيلة وامتطاها ونتج البغال واتخذ الاوز والحمام وعمل الترياق ورد المظالم وأمر الناس بعبادة الله والإحسان والانصاف ورد على الناس ماكان الضحاك قد غصبه من الأرض وغيرها إلا مالم يجد له صاحبا فإنه وقفه على المساكين وكان أول من نظر فى علم الطب .

وفى خطبة قس : يامعشر أيادين الصعب ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمر ألفين ثم كان ذلك كالحظة عين ثم أنشد ابن هشام اللاعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا   بالجنو فى جدث أشم مقيمـا

وقال الدار قطنى وابن ماكولا : ان اسمه هرمس .

ويقال : هرويس بن قبطون بن رومى بن لنطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح .

وقال قتادة : اسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح .

وهو الذى قتل بن دارا بن دارا – كان دارا أخا الإسكندر لأبيه فجمع بعد هلك دارا ملك دارا فملك العراق والشام والروم ومصر والجزيرة – وذل ملك الفرس وأوطأ أرضهم .

وأقام ذو القرنين فيها حاجـة   خوفا يطوف على اللظى المتوقد
إذا كان ذو القرنين جدى مسلما   فمتى تراه له المقاول تسجـد
طاف المشارق والمغارب عـالما   فى عين ذى خلب وثأط حرمد
فلقد أذل الصعب صعب زمانه   وأنـاط قـوة عـزه بالفرقــد

وسأل أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان عبد الله بن عباس فقال : ما الخلب والثأط والحرمد ؟ .

فقال ابن عباس : الخلب : الحمأة والثأط : ما تحتها من الطين والحرمد : ماتحته من الحصى والحجر .

وقيل : إنه الصعب بن ذى يزين الحميرى من ولد وائل بن حمير .

وقيل : إن الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم .

وقيل : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه .

ورأى ذو القرنين رؤيا فقال لقومه : إنى حلمت حلما رأيت أنى دنوت من الشمس حتى أخذت بقرنيها فى شرقها وغربها .

فقالوا : أنت ذو القرنين .

وقد تنازع الناس فيه من رأى أنه سمى بذى القرنين لبلوغه أطراف الأرض وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الأسم .

وقيل : أنه كان يقاتل بيديه وركابيه جميعا .

وقيل : إنه أعطى علم الظاهر والباطن .

وقيل : أنه دخل الظلمة والنور .

ولا يهمنا ما اسمه ولكن يهمنا أن الله تعالى أتاه من كل شيء علما يتسبب به إلى مايريد ﴿ **فأتبع سببا** ﴾[1] أى اتبع سببا من الأسباب التى أوتيها ومكن له فى الأرض .

تقدم ذو القرنين ومعه ستمائة ألف رجل فهدم حصون فارس وبيوت النيران وقتل الهرابذه وأحرق كتبهم واستعمل على مملكة فارس رجالا وسار قدما إلى أرض الهند .

فتلقاه ملك الهند بالفيله فنفرت خيل أصحاب ذى القرنين عنها فتراجع ذو القرنين عن الهند وأمر باتخاذ فيلة من نحاس وألبسها السلاح وجعلها مع الخيل حتى ألفتها .

ثم عاد ذو القرنين إلى الند فخرج إليهم ملك الهند فأمر ذو القرنين بتلك

---

(١) الكهف : ٨٥ .

الفيلة فملئت بطونها من النفط والكبريت وجرت على العجل إلى وسط المعركة ومعها جمع من أصحابه فلما نشب القتال أمر ذو القرنين بإشعال النار فى تلك الفيلة . فلما حميت انشكف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند فضربتها بخراطيمها فاحترقت وولت هاربة راجعة إلى الهند فإنهزم أهل الهند بين يديها وقتل ملك الهند .

ونزل ذو القرنين على مدينة حصينة وكان بها كثير من الأقوات وبها عيون ماء فعاد عنها وأرسل إليها قوما على هيئة التجار ومعهم أمتعة يبيعونها وأمرهم بمشترى الطعام والمغلاة فى ثمنها فإذا صار عندهم أحرقوه وهربوا ففعلوا ذلك وهربوا إلى ذى القرنين فأنفذ السرايا إلى سواد تلك المدينة وأمرهم بالغارة مرة أخرى فهربوا ودخلوا المدينة ليحتموا بها فسار إليهم ذو القزنين فلم يمتنعوا عليه .

وفتح مدن الهند وخرب بيوت الأصنام وأحرق كتب علومهم .

وأتى ذو القنرن على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء يستمتع به النفس من دنياهم فقد حفروا قبوراً فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض .. فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فذهب رسول ذى القرنين إلى ملكهم وقال له : أجب ذا القرنين .

فقال الملك : مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى .

فرجع رسول ذى القرنين إليه وأخبره فقال : صدق .

وذهب ذو القرنين إليه فلما أقبل إليه سأله : أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فها أنا قد جئت .

فقال الملك : لو كان لى إليك حاجة لأتيتك .

فتساءل ذو القرنين : مالى أراكم على حالة لم أر أحداً من الأمم عليها ؟ .

فتساءل الملك : وما ذاك ؟ .

قال ذو القرنين : ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا أتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ .

قال الملك إنما كرهنا هما لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تاقت نفسه

ودعته إلى ماهو أفضل منه .

فعاد ذو القرنين يتساءل : مابلكم قد احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعهدتموها فكنستموها وصليتم عندها ؟ .

قال الملك : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل .

قال ذو القرنين : وأراكم لاطعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ .

قال الملك : كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغاً وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام وأى ماجاوز الحنك من الطعام لم تجد له طعما كائنا ما كان من الطعام .

ثم مد ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة فتساءل : يا ذا القرنين أتدرى من هذا ؟ .

فهز ذو القرنين رأسه وقال : لا .. ومن هو ؟ .

قال الملك : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته .

ثم تناول جمجمة أخرى بالية فتساءل : ياذا القرنين أتدرى من هذا ؟ .

فقلب ذو القرنين كفه وقال : لا أدرى ومن هذا ؟ .

قال الملك : هذا ملك ملكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل فى أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته .

ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال : وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع ؟ .

فقال ذو القرنين : هل لك فى صحبتى ؟ فأتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما أتانى الله من هذا المال ؟ .

قال الملك : ما أصلح أنا وأنت فى مكان ولا أن نكون جميعا .

فتساءل ذو القرنين : ولم ؟ .

قال الملك : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولى صديق .

فقال ذو القرنين : ولم ؟ .

قال الملك : يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحداً يعادينى لذلك وما عندى من الحاجة وقلة الشىء .

فانصرف ذو القرنين عنه متعجبا منه ومتعظا به .

وسار ذو القرنين من الهند إلى الصين .. فأتاه حاجبه فى الليل فقال : هذا رسول ملك الصين .

فأحضره فسلم وطلب الخلوة .. ففتشوه فلم يروا معه شيئا فخرج من كان عند ذى القرنين فقال : أنا ملك الصين جئت أسألك عن الذى تريده فإن كان مما يمكن عمله عملته وتركت الحرب .

فقال له ذو القرنين : ما الذى آمنك منى ؟ .

فقال ملك الصين :

علمت أنك عاقل حكيم ولم يكن بينى وبينك عداوة ولا ذحل – حقد ويقال : طلب بذحله أى بثأره – وأنت تعلم أنك ان قتلتنى لم يكن قتلى سبب التسليم أهل الصين ملكى إليك ثم إنك تنسب إلى الغدر .

فعلم ذو القرنين أن ملك الصين عاقل فقال له : أريد منك إرتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلا ونصف الإرتفاع لكل سنة .

قال ملك الصين : قد أجبتك .. ولكن اسألنى كيف حالى ؟ .

فقال ذو القرنين : كيف حالك ؟ .

قال ملك الصين : أكون أو قتيل لمحارب وأول أكلة لمفترس .

فقال ذو القرنين : فإن قنعت منك بإرتفاع سنتين ؟ .

قال ملك الصين : يكون حالى أصلح قليلا .

فتساءل ذو القرنين : فإن قنعت منك بارتفاع سنة ؟ .

فقال ملك الصين : يبقى ملكى وتذهب لذاتى .

فقال ذو القرنين : وأنا أترك لك مامضى وآخذ الثلث لكل سنة فكيف يكون حالك ؟ .

قال ملك الصين : يكون السدس للفقراء والمساكين ومصالح البلاد والسدس لى والثلث للعسكر والثلث لك قد قنعت منك بذلك ..

فشكر وعاد إلى الصين فلما سمع العسكر بذلك فرحوا بالصلح .

ولما كان الغد خرج ملك الصين بعسكر عظيم أحاط بعسكر ذى القرنين فركب ذو القرنين والناس .. وظهر ملك الصين على الفيل وعلى رأسه التاج فسأله ذو القرنين : أغدرت ؟

فقال ملك الصين : لا ولكنى أردت أن تعلم أنى لم أطعك من ضعف ولكنى لما رأيت العلم العلوى مقبلا عليك أردت طاعته بطاعتك والقرب منه بالقرب منك .

فقال ذو القرنين : لا يسأت - نستأم - مثلك الجزية فما رأيت بينى وبينك من يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك .

فقال له ملك الصين : فلست تخسر .

وبعث إليه بضعف ما كان قرره له .

وسار ذو القرنين عنه من يومه ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكُراً * وَأَماَّ مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[1]

هل قال الله عز وجل : ياذا القرنين ؟ يجوز أن يكون العلى القدير خاطبه على لسان نبى فى وقته ويجوز أن يقول له هذا كما قال لنبيه ﷺ ﴿ فَإِمَّاَ مَنًّا بعَدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾[2].

ولما بلغ ذو القرنين مغرب الشمس استخرج صور أنبياء الله من خزانة آدم - كان آدم عليه السلام قد سأل ربه أن يريه أنبياء بنيه فأنزل عليه صورهم فصورها دانيال فى خرق الحرير -

وسار ذو القرنين إلى عين الحياة وجعل الخضر عليه السلام على مقدمة جيشه حتى أنتهى إلى عين اختلط ماؤها وطينها فتراءى له أن الشمس تغرب فيها وتختفى وراءها وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ولا سبيل للجهاد .

(١) الكهف : ٨٦ - ٨٩ .   (٢) محمد : ٤ .

نظر رسول الله ﷺ يوما إلى الشمس حين غربت فقال :

« **نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض** »

تغرب فى عين حامية .

ورأى ذو القرنين عند عين الحياة قوما هاله كفرهم وكبر عليه ظلمهم وطغيانهم فقدعتوا فى الأرض وأكثروا فيها الفساد وسفكوا الدماء إستجابة للشيطان وجريا وراء نوازع النفوس فإستخار الله فى أمرهم وما يصنع بهم وخيره بين هذين كما خير أبا القاسم ﷺ فقال : ﴿ **فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ** ﴾[1].

خير الله عز وجل ذا القرنين بين سبيلين يختار أحدهما ويسلك ما يريد منهما : اما أن يذيقهم القتل ويوقع بهم النكال جزاء كفرهم وطغيانهم واما أن يمهلهم ويدعوهم فلعل منهم من يهتدى فإختار ذو القرنين الأمهال على القتل والحسنى على الإثخان – إذا أكثر الإنسان فى الأرض قتلا – .

وأقام ذو القرنين فيهم مدة ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف وأقام عمود العدل ونشر لواء الاصلاح .

ثم بدا لذى القرنين أن يثنى عنان عزمه إلى الشرق فسار مجاهدا منصورا موفقا حتى إنتهى إلى غاية العمران فى الأرض فوجد قوما تطلع عليهم الشمس ولكن ليس لهم بيوت تسترهم أو أشجار تظلهم وقد اختلف فى هذه الأمة فقيل إنها : منسك وقيل : الزنج وقيل : تاوس وهاويل ومنسك وهم قوم كانوا على الفوضى والجهل حفاة عراة عماة عن الحق يتسافدون مثل الكلاب ويتهارجون تهارج الحمر – وقيل إنهم أهل جابلق وهم من نسل مؤمنى عاد الذين آمنوا بهود ويقال لهم بالسريانية مرقيسا – ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِن دُونِهَا سِتْراً ۞ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً** ﴾[2] وبسط ذو القرنين عليهم وعلى بلادهم لواء حكمه وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه .

ولما فرغ ذو القرنين من بلاد الشرق والغرب وما بينهما قصد بلاد الشمال

---

(١) المائدة : ٤٢ . (٢) الكهف : ٩٠ – ٩١ .

غازيا مجاهدا مظفرا منصورا حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين يسكنها أقوام لا تكاد تعرف لغاتهم أو يفهم فى الحديث مرماهم فقد جاوروا يأجوج ومأجوج ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَامَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾[1].

كانوا بين جبلين من قبل أرمينية وأذربيجان .. ولكن كيف فهم ذو القرنين كلامهم وكيف فهموا كلامه ؟ .

قالت له أمة من الإنس صالحة : لقد جاوروا يأجوج ومأجوج وهم قوم فى الأرض مفسدون – أكل بنى آدم والظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر – وأوزاع من الخلق ضالون مضلون . فلما رأوا ذا القرنين ملكا قويا شديد المراس واسع السلطان كثير الأعوان فزعوا إليه وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبين جيرانهم يأجوج ومأجوج سدا يفصل بلادهم ويحول دون عدوانهم – كان يأجوج ومأجوج قوما قد ركب الشر نفوسهم جبلة وامتزج الفساد بين جوانبهم خلقه السيف لا يمكنه أن يردعهم والنصح محال أن ينفعهم –

من هم يأجوج ومأجوج ؟ :

سأل الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود : يارسول الله من هم يأجوج ومأجوج ؟ .

قال خاتم الأنبياء ﷺ :

« يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح » .

قيل : يارسول الله صفهم لنا .

قال طبيب القلوب والعقول ﷺ :

« هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال

(1) الكهف : ٩٢ – ٩٥ .

الأرز – شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع – وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخرسان ويشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس » .

وقال ﷺ :

« ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان – الأفارقة –

إذن فيأجوج ومأجوج من الترك وقيل أن يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم وهما من ذرية يافث بن نوح أبى الترك » .

وقد ثبت فى الصحيحين أن الله تعالى يقول :

« ياآدم فيقول : لبيك وسعديك فيقول : ابعث بعث النار فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا فى شىء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج » .

وقال رسول الله ﷺ :

« ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك – سمى هؤلاء تركا لأنهم تركوا من وراء السد من هذا الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجرأة » .

وقال أبو سعيد الخدرى : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج .

ثم حكى العزيز الحكيم عن أهل ما بين السدين أنهم قالوا لذى القرنين : **﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾**[1]؟ .

أرادوا أن يجعلوا لذى القرنين أجراً عظيما يعنى أنهم أرادوا أن يجمعوا له

---

(١) الكهف : ٩٤ .

من بينهم مالا يعطوه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا - الخراج اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال - فقال ذو القرنين بعفة وصلاح وقصد للخير :

﴿ مَامَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾[1].

ما بسطه الله تعالى لى من القدرة والملك والتمكين خير لى من خرجكم وأموالكم كما قال سليمان عليه السلام :

﴿ أَتِمُدُّونَن بِمَال فَمَا أَتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِماَ أَتَاكُم بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُوَن ﴾[2].

لقد طلب ذو القرنين منهم أن يعينوه بقوة الابدان أى برجال والآلة التى يبنى بها الردم وهو السد فلو جمعوا له مالا وخرجا لم يعنه أحد ولو وكلوه إلى البنيان فمعونتهم بأنفسهم أجمل به وأسرع .. فحشدوا له الحديد والنحاس والخشب والفحم فوضع بين الجبلين قطع الحديد ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾[3].

أى وضع بعضه على بعض من الأساس حتى حاذى به رءوس الجبلين طولا وعرضا أحاط الحديد بالخشب والفحم ثم أجج عليه النار حتى صار كله نارا قال :

﴿ أتوْنِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قطراً ﴾[4].

فأفرغ عليه النحاس المذاب فاستوى كل ذلك بين الجبلين سدا منيعا قائما ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تعلو عليه لملاسته أو تنقبه لمتانته فأراح الله منهم شعبا كان يشكو من أذاهم وفسادهم - كانوا يقتلون الناس ويأكلون لحومهم وكانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئا أخضر - ويألم من عداوتهم وقال تبارك وتعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُواَ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾[5].

فأخبر المولى جل وعلا عن يأجوج ومأجوج أنهم ماقدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله .. ولما رأى ذو القرنين السد مينعا حصينا هتف من أعماق قلبه : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[6].

---

(١) الكهف : ٩٥ .
(٢) النمل : ٣٦ .
(٣) الكهف : ٩٦ .
(٤) الكهف : ٩٧ .
(٥) الكهف : ٩٨ .

قال رسول الله ﷺ :

« إن يأجوج ومأجوج يحفران السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفروه غدا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى كادوا يرون شعاع الشمس قال : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم - وعليها كهيئة الدم - فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا فى رقابهم فيقتلهم بها » .

وقال ﷺ :

والذى نفس محمد بيده ان دواب الأرض لتسمن وشترك شكرا من لحومهم ودمائهم » .

وقال على بن أبى طالب :

وصنف منهم فى طول شبر لهم مخالب وأنياب السباع وتداعى الحمام وتسافد البهائم وعواء الذئاب وشعور تقيهم الحر والبرد وآذان عظام احداها وبرة يشتون فيها والأخرى جلدة يصيفون فيها ويحفرون السد حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان فيقولون : ننقبه غداً إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون ويتحصن الناس بالصحون فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم ثم يهلكهم الله تعالى بالنغف فى رقابهم .

وقال ﷺ :

« يأجوج الأمة لها أربعمائة أمير وكذا يأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده » .

وقال تعالى : **﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجِ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون .. ﴾**[1]. حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج رأيتهم يسرعون من كل شرف يقبلون لكثرتهم ينسلون من كل ناحية .

قال رسول الله ﷺ :

« تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما

---

(١) الأنبياء : ٩٦ .

قال الله عز وجل : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليه مواشيهم ويشربون مياه الأرض حين أن بعضهم يمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يابسا حتى أن من بعدهم يمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرة حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد فى حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقى أهل السماء ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دما للبلاء والفتنة فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون : ألا رجل يشرى لنا نفسه فينظر مافعل هذا العدو ؟ فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى : يامعشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » .

ولما فرغ ذو القرنين من أمر السد دخل الظلمات مما يلى القطب الشمالى – الشمس جنوبية فلهذا كانت ظلمة وإلا فليس فى الأرض موضع إلا تطلع الشمس عليه أبدا – فلما دخل الظلمات أخذ معه أربعمائة من أصحابه يطلب عين الخلد فسار فيها ثمانية عشر يوما ثم خرج ولم يظفر بها وكان الخضر عليه السلام على مقدمته فظفر بها وسبح فيها وشرب منها .. والله أعلم .

لم يجمع ملك الأرض إلا لثلاثة ملوك : نمرود وذى القرنين وسليمان بن داود . وكان ذو القرنين ملك بعد النمرود بن كنعان وكان رجلا مسلما صالحا وكان يفتح المدائن ويجمع الكنوز فمن إتبعه على دينه وتابعه عليه وإلا قتله .

ورجع ذو القرنين إلى العراق فمات فى طريقة بشهر زور فدفن فى تابوت من ذهب مرصع بالجوهر وطلى بالصبر لئلا يتغير وطاف به من معه من الحكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم فكان يجمعهم ويستريح إلى كلامهم فوقفوا عليه فقال كبيرهم : ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيا وللعامة واعظا .

ووضع يده على التابوت وقال : أصبح آسرا الأسراء أسيرا .
وقال آخر : هذا الملك كان يخبأ الذهب فقد صار الذهب يخبأه .
وقال ثالث : ما أزهد الناس فى هذا الجسد وما أرغبهم فى التابوت .
وقال آخر : من أعجب العجب أن القوى قد غلب والضعفاء لاهون مغترون .
وقال آخر : هذا الذى جعل أجله ضمارا وجعل أمله عيانا هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك بل هلا حققت من أملك - خففت من أملك - بالإمتناع من وفور أجلك - من وقت أجلك - ؟ .
وقال آخر : أيها الساعى المنتصب جمعت ما خذلك عند الإحتياج إليه فغودرت عليك أوزاره وفارقت آثامة فجمعت لغيرك وإثمة عليك .
وقال آخر : قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك فمن كان له معقول فليعقل ومن كان معتبراً فليعتبر .
وقال آخر : رب هائب لك يخافك من ورائك وهو اليوم بحضرتك ولا يخافك .
وقال آخر : رب حريص على سكوتك إذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلم .
وقال آخر : كم أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت .
وقال صاحب كتب الحكمة : قد كنت تأمرنى أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك .
وقال آخر : هذا يوم عظيم أقبل من شره ما كان مدبراً وأدبر من خيره ما كان مقبلا فمن كان باكيا على من زال ملكه فليبك .
وقال آخر : يا عظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذباب .
وقال آخر : يا من ضاقت عليه الأرض طولا وعرضا ليت شعرى كيف حالك بما احتوى عليك منها ؟ .
وقال آخر : اعجبوا ممن كان هذا سبيله الجمع الحافل والملقى الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشاد من

الغى والفساد .

وقال آخر : يا من كان غضبه – غضبه – الموت هلا غضبت على الموت .

وقال آخر : قد رأيتم هذا الملك الماضى فليتعظ به هذا الملك الباق .

وقال آخر : إن الذى كانت الآذان تنتصت له قد سكت فليتكلم الآن كل ساكت .

وقال آخر : سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته .

وقال آخر : مالك لا تقل عضوا من أعضائك وقد كنت تستقل بملك الأرض بل مالك لا ترغب عن ضيق المكان الذى أنت فيه وقد كنت ترغب عن رحب البلاد ؟ .

وقال آخر : إن دنيا يكون هذا فى آخرها فالزهد أولى أن يكون أولها .

وقال صاحب مائدته : قد فرشت النمارق ونضدت النضائد ولا أرى عميد القوم .

وقال صاحب بيت ماله : قد كنت تأمرنى بالإدخار فالى من أدفع ذخائرك ؟ .

وقال آخر : هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طويت منها فى سبعة أشبار ولو كنت بذلك موقنا لم تحمل على نفسك فى الطلب .

وقالت زوجته : ما كنت أحسب أن غالب دارا يغلب فإن الكلام الذى سمعت منكم فيه شماتة فقد خلف الكأس الذى شرب به ليشربه الجماعة .

وقالت أمه حين بلغها موته : لئن فقدت من ابنى أمره لم يفقد من قلبى ذكره .

أليس فى كلام الحكماء مواعظ حسنة ؟؟ .

وقامت أم ذى القرنين بتنفيذ ما أوصاه ابنها فإتخذت وليمة ونادت فى مملكتها : أن لا يتخلف أحد وأن لا يجيب دعوتها من فقد محبوبا أو مات له خليل وليكن ذلك مأتم ذى القرنين بالسر وبخلاف مآتم الناس بالحزن .

فلما ورد نعى ذى القرنين نادت فى أهل مملكتها على مابه أمرها .. فلم يجب أحد دعوتها ولا بادر إلى ندائها فقالت لخدمها وحشمها :

ما بال الناس لم يجيبوا دعوتى ؟ .

فقالوا لها : أنت منعتهم مُن ذلك .

فتساءلت أم ذى القرنين : وكيف ؟ .

قال الخدم والحشم : أمرت أن لا يجيبك من فقد محبوبا أو عدم خليلا أو فارق حبيبا وليس منهم أحد إلا وقد أصابه بعض ذلك .

فلما سمعت أم ذى القرنين ذلك قالت : ياذا القرنين ما أشبه أواخرك بأوائلك .

ثم أمرت به فجعل فى تابوت من المرمر وأخرجته من تابوت الذهب هل خشيت من الملوك الذين سيأتون بعده أن لا يتركوه فى ذلك الذهب ؟ .

﴿ تَبَّت يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ ﴾[1].
صدق الله العظيم .

(١) المسد : ١ – ٥ .

أبـو لهـب

هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم والعزى صنم وكان يكنى أبا لهب لتلهب وجهه وحسنه وعلى الرغم من أنه كان شريفا وابن سيد قريش المهيب عبد المطلب بن هاشم فقد كان نسيجا خاصا لم يكن على شاكلة اخوته أبى طالب والعباس وحمزة كان أبو لهب سكيراً يلعب الميسر . لما حفر عبد المطلب شيخ بنى هاشم زمزم وجد فيها أسيافا وأدرعا وغزالتين من الذهب دفنتهما جرهم فعلق عبد المطلب الغزالتين فى الكعبة فكان أول من علق المعاليق بالكعبة .

وذات يوم نفدت خمر أبى لهب هو وجماعة من أصحابه وعلموا أن قافلة من الشام قد أقبلت ومعها خمر فأتمروا بينهم وسرقوا إحدى الغزالتين المعلقتين بالكعبة واشتروا بها خمرا .

وبينما كان عبد الله بن جدعان ورجال من قريش يطوفون بالكعبة لم يروا احدى الغزالتين الذهبيتين فإنطلق عبد الله بن جدعان إلى شيخ بنى هاشم وأخبره الخبر .. وعلم سادات قريش بأبى لهب وأصحابه فلحقوا ببعضهم وهرب بعضهم وكان فيمن هرب أبو لهب بن عبد المطلب فر إلى أخواله من خزاعة فمنعوا عنه قريشا فكان يقال لأبى لهب :

سارق غزالة الكعبة .

ولما عادت الغزالة ضرب سيد قريش الغزالتين فى باب الكعبة فكان عبد المطلب أول من جعل باب الكعبة ذهبا .. ووسط البلد الحرام ازدحمت الأصنام والأوثان حول الكعبة فلكل قبيلة آلهها وصنمها .. ووسط هذه الحياة المظلمة قام رجال رفعوا راية التوحيد وعزفوا عن عبادة الأصنام فأمسك زهير بن أبى سلمى أوراق الشجيرات التى اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول :

لولا أن يسبنى العرب لآمنت أن الذى أحياك بعد جفاف سيحيى العظام وهى رميم وقال :

فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى فمهما يكتم الله يعلم

واعتزل أبو قيس بن أنس قريشا وأصنامها واتخذ له فى بيته مسجدا لا يدخله طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم .

وبشر قس بن ساعدة الايادى وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل بالفجر الطالع وراحوا يتحدثون عن النبى القام .. كانوا يؤذنون بالدين المقبل الذى سيعيد راية الله إلى مكانهافقد انعقدت أواصر قلوبهم على دين خليل الرحمن .

وأراد أبو لهب أن يسكت قرد الفضول الذى يتواثب فى صدره فجلس إلى زيد بن عمرو بن نفيل فقال له : بلغنى أنك تقول : إن نبيا قد أظلنا زمانه .. فما معنى نبى ؟ .

قال زيد بن عمرو بن نفيل : هو الذى ينبأ عن الله عز وجل .

فتساءل أبو لهب : ومامعنى ينبأ عن الله ؟ .

قال زيد بن عمرو بن نفيل : الإرسال بعينه أى يرسل إلى الناس بإرسال جبريل عليه السلام عيانا .

فغادر أبو لهب مجلس زيد بن عمرو بن نفيل وقد قرر أن يعلن أنه ذلك النبى و لم يعد يشرب الخمر أمام الناس وراح يشربها فى بيته .. فضحك وسخر منه رجال قريش .

وكانت دار أبى لهب على بعد خطوات من الكعبة وعلى مقربة من جبل الصفا وكانت ملاصقة لدار ابن أخيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذى عرف فى أم القرى بالصادق الأمين .

وكانت أروى بنت حرب – أم جميل – أخت أبى سفيان بن حرب سيد تجار قريش زوجة أبى لهب وكانت عوراء تركت العاهة فى صدرها حقداً على البشر أجمعين فكان السعى بين الناس بالنميمة والوقيعة وقطع حبال الود والألفة عملها وسعادتها وكان أبو لهب كالدمية فى يدها .

وزوج أبو لهب ابنه عتبة من رقية بنت محمد وابنه عتيبة من أم كلثوم بنت محمد بن عبد الله .

ولما بعث الله عز وجل محمدا ﷺ برسالته أخذ أبو القاسم ﷺ يعرض دعوته على ألصق الناس به وال بيته وأصدقائه وكل من توسم فيهم خيراً ممن

يعرفهم ويعرفونه .

ولما بلغ الخبر أذنى أبى لهب غضب وأنكر ذلك وقال : أنا خير منه .

كانت دعوة أبى القاسم سرية وفردية ولما مرت ثلاث سنين نزل قوله تعالى :

﴿ وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين ﴾[1].

يقول رسول الله ﷺ :

« عرفت أنى ان بادرت بها قومى رأيت منهم ما أكره فصمت عن ذلك » .

ولزم رسول الله ﷺ داره فأتت عماته : عاتكة وأروى وصفية بنات عبد المطلب يعدنه فقال أبو القاسم ﷺ :

« ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين » .

فقالت عمات رسول الله ﷺ :

فادعهم – عشيرتك – ولا تدع أبا لهب فإنه غير مجيبك .

وأتى جبريل عليه السلام النبى عليه السلام فقال : **« يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك »** .

فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب :

فاصنع لنا ياعلى شاة على اصع من طعام وأعد لنا عس لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب

ففعل ربيب رسول الله – ﷺ –

فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم اعمامه : أبو طالب والعباس وحمزة وأبو لهب .

يقول على بن أبى طالب :

فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال : **« كلوا بسم الله »** .

فأكل القوم حتى نهلوا – شبعوا وتركوا الطعام – عنه يرى إلا أثار أصابعهم .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ .

يقول على بن أبى طالب : والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها – القصعة أو الجفنة –

ثم قال رسول الله ﷺ لعلى :

« اسقهم ياعلى » .

يقول ربيب رسول الله ﷺ : فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا وأيم الله أن كان الرجل منهم ليشرب مثله – القعب أو القدح –

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال : لهذا سحركم صاحبكم .

فتفرقوا ولم يكلمهم النبى عليه الصلاة والسلام .

فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ :

« يا على عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل – عبد العزى – قد بدرنى إلى ماسمعت قبل أن أكلم القوم » .

ففعل ربيب رسول الله ﷺ فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه : أبو طالب والعباس وحمزة وأبو لهب .

يقول على بن أبى طالب : وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها .

ثم قال رسول الله ﷺ :

« اسقهم ياعلى » .

فجاء على بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا .

يقول على بن أبى طالب : وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال : لهذا سحركم صاحبكم .

فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ .

فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ :

« ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » .

ففعل على ثم جمعهم لرسول الله ﷺ فصنع النبى عليه الصلاة والسلام كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا ثم سقاهم على بن أبى طالب من ذلك القعب حتى نهلوا عنه .

يقول على : وإيم الله أن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها .

قال رسول الله ﷺ :

« يا بنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟ »

فأحجم بنو عبد المطلب عنها جميعا .

يقول على بن أبى طالب : وإنى لأحدثهم سنا وأرمصهم عينا وأعظمهم بطنا وأحمشهم ساقا فلما رأيت ذلك قلت : أنا يارسول الله أكون وزيرك عليه .

فأخذ رسول الله ﷺ برقبة على ثم قال : **« إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا »** .

ثم قام القوم يضحكون وقال أبو لهب لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع .

ثم أردف فى صوت يطفح صديدا وحقداً : هؤلاء عمومتك وبنو عمك وأعلم أنه ليس لقومك فى العرب قاطبة طاقة وإن أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك وأن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به .

ولما خرج بنو عبد المطلب من بيت النبى عليه الصلاة والسلام قال أبو لهب : سحركم محمد ان أحدنا ليأكل الجذعة – ولد الشاة أو ولد البقرة فى عامها الثانى – ويشرب العس – القدح من اللبن – فلا يشبع وإن محمدا قد أشبعكم من فخذ شاة وأرواكم من عس لبن .

من أين أن يدرك هذا الخبيث الكافر أن تلك معجزات رسول الله ﷺ ؟ من أين له أن يعرف أن تلك من دلائل النبوة ؟ لقد طمس الحقد غلالة على قلبه وكسا العمى على عينيه غشاوة فلم يبصر ..

كان مما تقتضى بالتقاليد العربية الجاهلية الأنتصار للقريب ظالما أو مظلوما كان ذلك شأنهم لكن أبا لهب الجهول الشقى كان من أسفه السفهاء على أبى القاسم ﷺ . قال أبو لهب :

هذه والله السوأة خذوا على يدى محمد قبل أن يأخذ غيركم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعه مابقينا .

وفى الضباح صعد أبو القاسم ﷺ جبل أبى قبيس وهتف : « **يا صباحاه** » .

فتساءلت قريش : من هذا الذى يهتف ؟ .

قالوا : محمد .

فاجتمعوا إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال خاتم الأنبياء ﷺ : « **يابنى فهر يابنى عدى يابنى كعب أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟** » .

قال الناس : نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط .

فقال الصادق المصدوق ﷺ :

« **يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يامعشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ياصفية بنت عبد المطلب أنقذى نفسك من النار لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها** » .

فنفخ أبو لهب فى يديه وقال : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ .

ثم أشار بيده وقال : تفرقوا أيها الناس .

فتفرق الناس .. ولكن بعد أن دعاهم رسول الله ﷺ فعم وخص .

فنزل قوله تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾[1].

الرجل الوحيد من قريش الذى ذكره القرآن باسمه وأعلن فى العالمين عداوته لله وغضب الله عليه ووقوع بأسه وعذابه به هو أبو لهب وكناه الله عز وجل بأبى لهب واسمه عبد العزى والعزى صنم ولم يضف الله فى كتابه العبودية إلى

---

(١) المسد : ١ .

صنم فإنه كان بكتيته أشهر منه باسمه والاسم أشرف من الكنية فحطه الله تعالى عن الأشرف إلى الأنقص ولذلك دعا الله عز وجل الأنبياء بأسمائهم ولم يكن عن أحد منهم ويدل ذلك على شرف الأسم على الكنية فإن الله سبحانه وتعالى يسمى ولا يكنى وإنه أراد يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أبا لها تحقيقا للنسب وإمضاء للفأل والطيرة التى اخترها لنفسه .

وكان أهله يسمونه : أبا لهب لتلهب وجهه وحسنه فصرفهم الله عز وجل عن أن يقولوا : أبو النور وأبو الضياء .

الذى هو المشترك بين المحبوب والمكروه وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الذى هو مخصوص بالمكروه المذموم وهو النار ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره ليكون لعنة على كل لسان إلى يوم الدين لا يذكر اسمه إلا ذكر مدموغا باللعنة مرجوما بالشماتة والإزدراء . فتناول القرآن الكريم سيدا وصنديدا من سادات قريش فتبت الأولى تعنى أبى لهب والثانية تتناول أبا لهب نفسه وهلاكه .

ولقى أبو جهل بن هشام أبا لهب فقال له : يا أبا عتبة بلغنى أن محمداً أنذركم بالنار .

فقال أبو لهب : إن كان ما قال ابن أخى حقا فإنى أفدى نفسى بمالى وولدى واللات إنى لأعجب يا أبا الحكم لماذا اختار رب محمد رجلا كمحمد ولم يرسلنى نبيا ألست من سادات قريش ؟ .

فنزل قوله تعالى : ﴿ **مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ ماله وَمَا كَسَبْ** ﴾[1].

أى ما دفع عن عبد العزى بن عبد المطلب عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من جاه من الولد وولد الرجل من كسبه .

وقيل أن أبا لهب جاء رسول الله ﷺ فقال له : ماذا أعطى إذا آمنت بك يا محمد ؟ .

فقال ﷺ :

« كما يعطى المسلمون » .

فقال أبو لهب :

مالى عليهم فضل ؟ .

---

(١) المسد : ٢ .

فتساءل أبو القاسم ﷺ :

« وأى شىء تبغى ؟ » .

فقال أبو لهب وهو ينفخ فى يده : تبا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء – يعنى المستضعفين كبلال بن رباح وصهيب الرومى وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت – سواء ؟.

فأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أى خسر وخاب وهلك أبو لهب .

يقول عبد الله بن عباس : لما خلق الله عز وجل القلم قال له : أكتب ماهو كائن .. وكان فيما كتب ﴿ تَبَّتْ يداً أَبِى لَهَبٍ وَتبَّ ﴾ .

وسئل حسن البصرى عن قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتبَّ ﴾ هل كان فى أم الكتاب ؟ وهل كان أبو لهب يستطيع أن يصلى النار ؟ .

فقال حسن البصرى : والله ما كان يستطيع إلا أن يصلاها وإنها لفى كتاب الله من قبل أن يخلق أبو لهب وأبواه .

وذاعت سورة المسد فى أم القرى ولفحت أذنى أبى لهب فاشتعلت نار الحقد فى صدره وفى قلب امرأته أم جميل فاشتدت عداوتهما على الإسلام ونبى الإسلام وراح أبو لهب وامرأته فى جنون مسعور تستعدى قريشا على أبى القاسم ﷺ . ومضى أبو لهب وأم جميل يثيرانها حربا شعواء على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة .

وأراد أبو لهب وامرأته أم جميل أن يثقلا كاهل رسول الله ﷺ بالحزن والقلق والهموم فقال أبو لهب لابنه عتبة :رأسى من رأسك حرام ان لم تطلق ابنة محمد – يعنى رقية – .

ففارقها عتبة ولم يكن دخل عليها .

ثم قال لابنه عتيبة : رأسى ورأسك حرام إن لم تطلق ابنة محمد – يعنى أم كلثوم وكان تزوجها ولم يدخل بها –

فقال عتيبة فى غضب :

سأفارقها ولآتين أباها فلأوذينه فى ربه .

وأنطلق عتيبة بن أبى لهب إلى بيت رسول الله ﷺ فلم يجده فى داره ولما

علم أنه فى بيت عمه أبى طالب ذهب إليه فسب آله وبصق فى وجهه - ولكن البزق لم يصب وجه أبى القاسم ﷺ - وقال عتيبة : يا محمد أنا كافر بربك .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم سلط - ابعث - عليه كلبا من كلابك - سبعا أو أسداً من أسدك » .

فوجم أبو طالب لما سمع دعوة رسول الله ﷺ على عتيبة بن أبى لهب ثم قال : ما كان أغناك ياابن أخى عن هذه الدعوة .

وأسلم طليب - كليب - بن عمير - ابن أروى بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ - فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى فذهب طليب إلى أمه وقال لها : تبعت محمدا وأسلمت لله .

فقالت أروى بنت عبد المطلب :

ان أحق من وازرت وعضدت ابن خالك والله لو كنا نقدر - تقصد النساء - ما يقدر عليه الرجال لتبعناه وذببنا - دافعنا عنه - .

فقال طليب بن عمير :

فما يمنعك يا أمى من أن تسلمى وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة ؟ .

فقالت أروى بنت عبد المطلب :

أنظر ما يصنع اخواتى ثم أكون احداهن .

فقال كليب بن عمير :

فإنى أسألك بالله إلا أتيتيه .

فذهبت أروى بنت عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ ونطقت بشهادة الحق .. ثم كانت تعضد النبى عليه الصلاة والسلام .

وعرض أبو جهل بن هشام لرسول الله ﷺ وأبو لهب وبعض سادات قريش فآذوه فعمد كليب بن عمير إلى أبى جهل فضربه ضربة شجه فأخذه بنو مخزوم وأوثقوه فقام أبو لهب وأطلق سراحه فقيل لأروى بنت عبد المطلب :

ألا ترين ابنك كليبا قد صير نفسه عرضا دون محمد ؟ .

فقالت عمة رسول الله ﷺ : خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله وقد جاء بالحق من عند الله .

فتساءلوا :

ولقد تبعت محمدا ؟ .

قالت أروى بنت عبد المطلب :

نعم .

فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره فأقبل حتى دخل على أخته فقال في دهش : عجبا لك ولاتباعك محمد وتركك دين عبد المطلب .

فقالت أروى بنت عبد المطلب :

قد كان ذلك فقم دون ابن أخيك واعضده وامنعه فإن يظهر أمره فأنت بالخيار تدخل معه أو تكون على دينك فإن يصب كنت قد أعذرت ابن أخيك .

فسخر أبو لهب منها وقال :

ولنا طاقة بالعرب قاطبة ؟ جاء بدين محدث

ثم انصرف ورجع إلى داره فوجد فروثا فحمله وطرحه على باب محمد ﷺ - كان جاره - فرآه أخوه حمزة بن عبد المطلب فأخذ الفروث وطرحه على رأس أبي لهب وقال له : أي جوار هذا ؟ .

فقال أبو لهب وهو ينفضه عن رأسه :

صاحبي أحمق .

وتزوج عثمان بن عفان رقية بنت رسول الله ﷺ وهاجرا إلى الحبشة وبعض أصحاب رسول الله ﷺ .

ولما علم مهاجرو الحبشة بإسلام عمر بن الخطاب وأن المسلمين أصبحوا يصلون في الحرم آمنين مطمئنين عادوا إلى أم القرى فأراد أبو جهل بن هشام أن يعذب أبا سلمة المخزومي حتى يرده إلى دين آبائه فانطلق أبو سلمة إلى خاله أبي طالب ليكون في جواره .. وجاء أبو جهل على رأس رجال من بني مخزوم فقالوا : يا أبا طالب لقد منعت ابن أخيك - يعنون محمدا ﷺ - فمالك وصاحبنا تمنعه منا ؟ .

فقال أبو طالب :

انه استجارني وهو ابن أختي فإن لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي .

وكان أبو لهب حاضرا فقال مغضبا :

يامعشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيء ماتزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه ؟ والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه – يعني رسول الله ﷺ – في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد ؟ .

هل قال أبو لهب ذلك شجاعة ومروءة وتعصبا ؟ هل أصابته نوبة رحيمة ؟ هل كان فاقد الوعي عاكف على شرب الخمر قبل أن يأتي إلى بيت أخيه أبي طالب ؟ .

فخشي أبو جهل أن ينسلخ أبو لهب عنهم أو تأخذه العصبية فينضم إلى ابن أخيه ﷺ فتشتد دعوته وتقوى فتراجع وقال :

بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ..

وترك أبا سلمة في جوار خاله أبي طالب .

وأهم قريشا أمر خطير فقد قرب موسم الحج وعرفت أن وفود العرب ستقدم عليهم فرأت أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفسوهم .. فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة زعيم بني مخزوم فقال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستفد عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحداً ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا .

فقال أشراف قريش : فأنت ياأبا عبد شمس فقل وأقم لنارأيا نقول به .

فقال الوليد بن المغيرة :

بل أنتم فقولوا أسمع .

فقال أمية بن خلف :

نقول كاهن .

فهز الوليد بن المغيرة رأسه وقال :

لا واللات ماهو بالكاهن لقد رأينا الكهان

فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

فقال أبو جهل بن هشام :

نقول شاعر .

فقال الوليد بن المغيرة :

ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضة ومقبوضه ومبسوطة فما هو بالشعر .

قال عقبة بن أبى معيط :

نقول مجنون .

فقال الوليد بن المغيرة :

ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فماهو بخنقه ولا بتخالجه ولا وسوسته .

قال أبو لهب بن عبد المطلب :

نقول ساحر .

قال الوليد بن المغيرة :

ماهو بساحز لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بتفثهم ولا عقدهم .

فقال سادات قريش :

فما تقول أنت ياأبا عبد شمس ؟.

قال الوليد بن المغيرة : والله ان لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الاعرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته ..

فتفرق أشراف قريش بذلك .

وقدمت القبائل من كل فج عميق لتأية مناسك الحج ووجدها أبو القاسم ﷺ فرصة طيبة ليعرض نفسه ودينه الذى أرسله الله سبحانه وتعالى به على القبائل . ولكن قريشا جلست بسبيل الناس لا يمر أحد إلا حذروه محمدا ﷺ وذكروا له أمره ولكن رسول الله ﷺ وقف يدعو الناس إلى الإسلام .

يقول ربيعة الديلى :

رأيت رسول الله ﷺ بذى المجاز يتبع الناس فى منازلهم ويدعوهم إلى الله ووراءه رجل أحول تتوهج وجنتاه وهو يقول : أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا عمه أبو لهب .

وأخذ رسول الله ﷺ يطوف على القبائل يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه .. ويقول :

« يأيها الناس قولوا : لا آله إلا الله تفلحوا وتملكوا العرب وتدين لكم بها العجم فإذا مم كنتم ملوك الجنة » .

وأبو لهب وراءه يقول :

أيها الناس لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب .

فيسأل الناس :

من هذا الرجل الأحول الوضىء الذى له غديرتان يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ .

فيرد رجال قريش :

انه عمه أبو لهب .

فيرد الناس على أبى القاسم ﷺ أقبح الرد ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك .

ويتبسم أبو لهب إبتسامة ذات مغزى حين ينصرف الناس عن ابن أخيه ﷺ .

وخرج أبو لهب وابنه عتيبة ورجال من قريش إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من ديره فقال لهم :

إن هذه الأرض مسبعة تملأها السباع .

فقال أبو لهب لأصحابه :

إنكم قد عرفتم نسبى وحقى .

فقالوا :

أجل ياأبا لهب .

فقال أبو لهب :

أعينونا يامعشر قريش هذه الليلة فإنى أخاف على ابنى عتيبة دعوة محمد فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم أفرشوا لابنى عليه ثم افرشوا حوله .

فجمعوا متاعهم إلى الصومعة ثم فرشوا لعتيبة بن أبى لهب على متاعهم ثم صنعوا حوله حصارا ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتيبة .

ولما أرخى الليل سدوله أقبل أسد فاقترب منهم فبلغت القلوب الحناجر عندما راح الأسد يتشمم وجوههم ثم مشى إلى قلب الحلقة فلما اقترب من عتيبة بن أبى لهب وثب عليه ثم ضغمه ضخمة فسقط من فوق المتاع فقال وهو يلفظ أنفاسه :

ألم أقل لكم ان محمداً أصدق الناس لهجة ؟ .

ومات عتيبة فاشتعلت نار الحقد والكراهية فى صدر أبى لهب وامرأته أم جميل ضد الإسلام ونبى الإسلام ..

وعزم أشراف قريش على قتل رسول الله ﷺ وبلغ الخبر أبا طالب فجمع بنى هاشم وبنى عبد عبد المطلب وأمرهم أن يمنعوا أبا القاسم ﷺ ويدخلوه إلى شعبهم فخرج بنو هاشم وبنو عبد المطلب مسلمهم وكافرهم فمنهم من فعله حمية ومنهم من فعله إيمانا ويقينا ففى الوقت الذى كان فيه أبو طالب عضدا ونصرا لمحمد ﷺ يعمل على حماية ابن أخيه ﷺ لم يكن على دينه ولكن تلبية لدوافع العصبية القبيلية كان أبو لهب متحالفا مع سادات قريش .

لقى أبو لهب هند بنت عتبة بن ربيعة فسألها : كيف رأيت نصرى للات والعزى ؟ .

قالت زوجة أبى سفيان بن حرب :

لقد أحسنت .

فأخذ ولده وظاهروا قريشا على قومهم . ولم يكتف أبو لهب أن قريشا قد كتبوا صحيفة أجمعوا فيها على أن لا ينكحوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئا وعلقوا هذه الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا لذلك على أنفسهم بل ضربت قريش حول شعب أبى طالب

حصارا من الحرس يمنعون من فيه من الخروج ويمنعون الناس من الدخول أو الإتصال بمن قبل حماية رسول الله ﷺ حتى أكل بنو عبد المطلب وبنو هاشم حشائش الأرض فإذا تمكن أحد منهم الخروج من الشعب وأراد أن يشترى طعاما عرفه أبو لهب وقال للتجار :

يامعشر التجار غالوا محمدا وأصحابه حتى لايدركوا شيئا معكم فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى .

فيزيد التجار على أصحاب محمد ﷺ فى السلعة قيمتها أضعافا .. فيعودون إلى الشعب وليس فى أيديهم شيء حتى ربطوا الحجارة على بطونهم تخفيفا لالآم

ولما مات أبو طالب وخديجة بنت خويلد اشتدت عداوة قريش لرسول الله ﷺ بعد أن أصبح بلا ناصر ولا معين ونالت قريش من أبى القاسم ﷺ من الأذى مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه ابنته فاطمة الزهراء بقدح كبير به ماء فغسل وجهه ويديه وقال ﷺ :

« يابنية لا تخشى على أبيك عيلة - خديعة - ولاذلة . يابنية إن الله مانع أباك » .

ثم أطرق رسول الله ﷺ برأسه وقال :

« مانالت منى - مانالتنى - قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب » .

ولزم رسول الله ﷺ داره وأقل الخروج فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه وقال له :

يامحمد أمض لما أردت وماكنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وسب ابن الغيطة النبى عليه الصلاة والسلام فأقبل إليه أبو لهب فنال منه فولى ابن الغيطة يصيح :

يامعشر قريش صبأ - غير دينه - أبو عتبة .

فأقبلت قريش ووقفوا بباب أبى لهب فتساءل : من صاحب هذا القول ؟ .

قالوا :

الناس يرددون .

قال أبو لهب :

وهل آفة الأخبار إلا رواتها ؟ ما فارقت دين عبد المطلب ولكنى أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى لما يريد .

فقال سادات قريش هازئين :

لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

كان أشراف قريش لا يريدون معارضة أبى لهب حتى لا يصر على منعة ونصرة ابن أخيه ﷺ وكانوا يعلمون أنه سكير يشرب الخمر وأنه أحمق فجاءه أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبى معيط فقالا : أأخبرك ابن أخيك أين مدخل عبد المطلب ؟ .

قال أبو لهب : لا .

قالا :

اذهب إليه وسله .

فذهب أبو لهب إلى أبى القاسم ﷺ وسأله :

يامحمد أين مدخل عبد المطلب ؟ .

قال الصادق المصدوق ﷺ :

« **مع قومه** » .

فرجع أبو لهب إلى أبى جهل وعقبة وقال لهما : سألته فقال مع قومه .

فقالا : يزعم أن أباك فى النار .

فعاد أبو لهب إلى رسول الله ﷺ وتساءل :

يامحمد أيدخل عبد المطلب النار ؟ .

فقال أبو القاسم ﷺ :

« **ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار** » .

فركب عبد العزى بن عبد المطلب الغيظ والحمق وقال : لا برحت لك إلا عدوا أبدا وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار .

واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش على خاتم الأنبياء ﷺ ..

وعلمت قريش أن محمدا ﷺ قد بايع الأنصار وأن أصحابه قد هاجروا من مكة إلى يثرب وأن محمدا ﷺ ينوى الهجرة فإجتمع سادات قريش فى دار الندوة يتشاورون فى أمر أبى القاسم ﷺ ..

واتفقوا على أن يأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إلى محمد ﷺ فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم .

ولما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه ﷺ يرصدونه حتى نام .. ولكنه خرج عليهم فأخذ حفنة من تراب فى يده ووضعها على رءوسهم فأخذ الله على أبصارهم فلم يرونه .. وهاجر مع أبى بكر الصديق إلى يثرب ولحق بأصحابه .

ولما علمت قريش أن محمدا ﷺ قد هاجر ثارت ثائرتهم فقال أبو لهب : استولوا على دور الفارين إلى يثرب وعلى أموالهم وتجارتهم واحبسوا المستضعفين من المسلمين حتى لا يلحقوا بإخوانهم .

ولما كان يوم بدر خرجت قريش كلها لإستئصال شأفة محمد ﷺ و لم يتخلف من ساداتها أحد الا أبا لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة – كان قد لعب معه الميسر فخسر كل أمواله ثم لعب على حريته ففقدها العاص وصار عبداً لأبى لهب بعد أن أبى ورفض قومه – بنو مخزوم – أن يدفعوا أربعة آلاف درهم ثمنا لحريته الذى ساءت أخلاقه –

وكان أول من قدم من بدر الحيسمان بن عمرو الخزاعى إلى الحرم فسأله صفوان بن أمية :

ما وراءك ؟ .

قال الحيسمان الخزاعى :

ورائى زوابع وأعاصير توشك أن تقتلعنا من مكة

فقد قتل كل من دعا عليه محمد لقد هبرت سيوف أصحابه عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا الحكم بن هشام وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وأبا البخترى ونبيه ومنبه ابنى الحجاج وحنظلة بن أبى سفيان و ..

فقال الحاضرون فى الحجر :

حسبك .. حسبك ما تقول ؟ واللات والعزى لن يعقل هذا ..

وأقبل عمرو بن عبدود فارس العرب جريحا ومعه عكرمة بن أبى جهل فتساءل الحاضرون :

ما وراءكما ؟ .

قال عمروبن عبدود وعكرمة :

لقد خلفنا عظامنا فى بطن الصحراء مزقت أكبادنا وخلفنا معها عدتنا وعتادنا غنيمة لأصحاب محمد .

وأقبل أبو سفيان بن الحارث فقام إليه أبو لهب فقال :

هلم إلى يا ابن أخى فعندك الخبر أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ .

قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

والله ماهو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا .. وأيم الله مع ذلك مالمت الناس فقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض مايشبهها شيء ولا يقف أمامها شيء .

فقال أبو رافع غلام العباس بن عبد المطلب :

تلك والله الملائكة .

فلطمه أبو لهب على وجهه لطمة منكرة فتشاورا - تصارعا - وكان أبو رافع رجلا ضعيفا فاحتلمه أبو لهب وضرب به الأرض وبرك على صدره يضربه وكانت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب جالسة وقد سرها الخبر فقامت إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته وضربت به أبا لهب على رأسه وقالت : استضعفته إن غاب عنه سيده ؟ .

فشجت رأس أبى لهب شجة منكرة فقام يجر رجليه ذليلا ورماه الله عز وجل بالعدسة .. فمات وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتن ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفا من بعيد مخافة عدوى العدسة وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون ثم حملوه أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ قَالُوا لَاطَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) البقرة : ٢٤٩ .

طـالـوت

كان وجه الشمس الدامى يغوص فى جوف الأرض عندما رفع جالوت قائد وملك العماليق سيفه فتألق بلون الدم وقال :

فانطلقت الخيول كالسهام نحو بنى إسرائيل فاخترقت السهام الصدور وأطاحت السيوف بالرءوس .. ففر وإنهزم بنو إسرائيل .

ولم يكتف جالوت بهزيمة أعدائه بل سار بجيشة المنتصر إلى ديار بنى إسرائيل فأخرج العماليق أبناء بنى إسرائيل واستولوا على أموالهم .. وأقبل رجل يتسلل كالظل يحمل تابوتا فبصر به جالوت.. وانتزعه منه فصاح الرجل وهو يبكى :

إنه تابوت موسى عليه السلام .

احتضن جالوت التابوت – الصندوق – كما يحتضن الأب ابنه الوحيد .. ثم فتحه وقال :

هذه عصا موسى التى ألقاها فصارت حية تسعى وابتلعت حبال السحرة وعصيهم .. ثم أمسكها كليم الله فصارت عصا كما كانت .

ووضع جالوت عصا موسى بجانبه ثم إلتقط عمامة وأردف : هذه عمامة هارون .

ثم نثر جالوت ثيابا واستطرد :

وهذ ثياب هارون .

ثم نظر جالوت فى جوف التابوت وقال :

وهذه ألواح من التوراة .

وفر بنو إسرائيل فى كل وجه .. تاهوا فى الصحراء فتلقفهم الجوع والعطش وامتلأت قلوبهم بالكراهية والحقد وصارت قلوبهم شتى . أدركوا الآن أنهم لما عصوا غلبوا وأخذ منهم التابوت وذل أمرهم ؟ .

قال رجل من بنى إسرائيل : لو كان نبى الله موسى حيا .. ؟ .

فقال آخر :

لقد ضعفنا عن محاربة أعدائنا من عماليق فلسطين .

وقال ثالث :

لو سلبوا كل شيء وتركوا لنا التابوت .. ؟ .

فقال رابع :

كان ذلك التابوت ينبهنا ويحذرنا ويكشف لنا أخبار عدونا فيحدث رنينا إذا قدموا إلينا .

وطال على بنى إسرائيل البلاء وأذلتهم الملوك من غيرهم ووطئت بلادهم وقتلوا رجالهم وسبوا ذراريهم وغلبوهم على التابوت الذى فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وهارون وبه كانوا ينصرون إذا لقوا العدو .

وقد ضرب ملك العمالقة عليهم الجزية وأخذ توراتهم فراح بنو إسرائيل يسألون الله أن يبعث لهم نبيا يقاتلون معه .

وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منه الا امرأة حبلى فأخذوها وحبسوها فى بيت رهبة أن تلد فتبدله بغلام لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها فجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته سمعون أوشمعون وكانت تقول : سمع الله دعائى .

وكبر الغلام - سمعون - فأسلمته أمه يتعلم التوارة فى بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ سمعون أن يبعثه الله نبيا أتاه جبريل عليه السلام والغلام نائم إلى جنب الشيخ - كان لا يأمن عليه أحدا غيره - فدعاه بلحن - بصوت - الشيخ - : يا شمويل .

فقام الغلام فزعا إلى الشيخ فقال :

يا أبتاه .. دعوتنى ؟ .

فكره الشيخ أن يقول : لا .

فيفزع الغلام .. فقال :

يابنى ارجع فنم .

فرجع سمعون فنام ثم دعاه جبريل علي السلام الثانية أيضا فقال شمعون للشيخ :

يا أبتاه .. دعوتنى ؟ .

قال الشيخ :

ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبنى .

فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل عليه السلام فقال :

« اذهب إلى قومك

فبلغهم رسالة ربك فإن الله قد بعثك فيهم نبيا » .

فذهب سمعون بن بالى ووقف فوق أطام ونادى : يابنى إسرائيل .. يابنى إسرائيسل هلم إلى .

فأقبلوا وتساءلوا :

من أنت ؟ .

قال شمعون : أنا شمويل بن بالى رسول الله إليكم .

فكذبوه .. وقالوا :

استعجلت بالنبوة ولم يألك - لم نبالك -

فقال شمويل بن بالى : لم ؟ .

قالوا :

إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا يقاتل فى سبيل الله آية نبوتك .

فقال شمويل بن بالى :

عسى إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ .

فقال بنو إسرائيل :

ومالنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .

فدعا شمويل بن بالى ربه .. فاتى بعصا تكون مقدارا على طول الرجل الذى يبعث فيهم ملكا فقال :

إن صاحبكم يكون طوله طول هذه العصا .

فقاسوا أنفسهم بها فلم يكونوا مثلها .

وكان طالوت رجلا سقاء يستقى على حمار له فضل حماره فانطلق يطلبه فى الطريق فلما رأوه دعوه فقاسوه بالعصا فكان مثلها فقال شمويل بن بالى : **﴿ انَّ اللهَ قَد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكًا ﴾**[1].

---

(١) البقرة : ٢٤٧ .

فقال بنو إسرائيل :

ما كنت قط أكذب منك الساعة ونحن من سبط المملكة وليس هو من سبط المملكة ولم يأت أيضا سعة من المال فتتبعه لذلك .

وقيل : إن شمويل بن بالى لما قدم إلى بنى إسرائيل سألهم :

ماذا تريدون ؟ .

قالوا : نريد ملكا يجمع قلوبنا ويجعل لنا جيشا قويا نحارب به جالوت .

فقال شمويل بن بالى :

إنكم تخالفون أوامر الله عز وجل ولا تسمعون كلام الأنبياء وتفرون قبل أن تلقوا عدوكم وإذا أمرتم بالقتال فلن تقاتلوا .

فقالوا :

كيف لا نقاتل وقد نالنا ذلة وغلبة العماليق ؟ .

فتساءل سمعون بن بالى :

هل تطلبون الاذن فى الجهاد ؟ .

قالوا : نعم .

فتساءل شمويل بن بالى : إذا دعوت الله تعالى أن يختار لكم ملكا فهل ترضون به ؟ .

قال بنو إسرائيل :

نعم .

وسأل شمويل بن بالى ربه أن يبعث إلى بنى إسرائيل ملكا ويدله عليه ..

فقال تعالى :

انظر إلى القرن الذى فيه الدهن فى بيتك فإذا دخل عليك رجل فتش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى إسرائيل فأدهن رأسه منه وملكه عليهم .

وخرج طالوت – كان دباغا عالما من سبط بنيامين ولم يكن من سبط النبوة ولا سبط الملك – فى إبتغاء دابة أضلها فقصد شمويل بن بالى عسى أن يدعو له فى أمر الدابة أويجد عنده فرجا فنش الدهن فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت وقال له : أنت ملك بنى إسرائيل الذى أمرنى الله تعالى بتقديمه .

وصحب شمويل بن بالى طالوت .. ثم قال لبنى إسرائيل : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا .

فقالوا :

﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾[1]؟ .

كيف يملكهم وهم أحق بالملك منه ؟ جروا على سنتهم فى تعنيتهم الأنبياء وحيدهم عن أمر الله تعالى .. انهم من سبط الملوك وطالوت دباغ فقير .

احتج شمويل عليهم وقال :

﴿ انَّ اللهَ اصْطَفَاهُ ﴾[2].

فقالوا فى استنكار :

كيف يختاره ويملكه علينا ونحن أحق منه ؟ اننا أصحاب الجاه والسلطان .

ثم تساءلوا :

لماذا لا تختار لنا ملكا غير طالوت ؟ .

قال سمعون بن بالى :

﴿ انَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾[3]. لقد اختاره الله تعالى عليهم لعلمه وقوته فهو أعلم رجل فى بنى إسرائيل وأجمله وأتمه وزيادة الجسم مما يهيب العدو .

فقال بنو إسرائيل :

ماذا نفعل بعلمه وجسمه ؟ .

قال شمويل بن بالى :

بعلمه ينظم الملك وبعلمه يضع الخطط التى تهزم العماليق وبفضل قوته وشجاعته يخافه الأعداء .

فقالوا :

ألم يجد الله رجلا غير طالوت ؟ .

قال سمعون بن بالى : لا تعترضوا ولا تجادلوا فى رجل اختاره الله وولاه

---

(١) البقرة : ٢٤٧ .
(٢) البقرة : ٢٤٧ .
(٣) البقرة : ٢٤٧ .

عليكم .

فقال بنو إسرائيل :

ما الدلالة على صدق قولك ؟ .

قال شمعون بن بالى : إذا خيرتم بين أبنائكم وتابوت موسى فماذا تختارون ؟ .

قالوا :

تابوت موسى .

فقال شمويل بن بالى :

﴿ انَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾[1].

فرح جالوت وأهل فلسطين بالتابوت فرحا شديدا .. ولكن لم تمض أشهر على سلب التابوت من بنى إسرائيل حتى نزل بالعماليق البلاء والأمراض .. فقالوا : لم لا نضع هذا التابوت فى بيت آلهتنا ؟ .

فقال العماليق :

نعم الرأى .

فوضعوا التابوت فى بيت أصنامهم تحت الصنم الكبير فأصبحوا وهو فوق الصنم فأخذوه وشدوه إلى رجليه فأصبحوا وقد قطعت يد الصنم ورجلاه وألقيت تحت التابوت .. فقالوا :كيف غاب عنا الا نضع التابوت فى كنيستنا ؟ .

ووضعوه فى كنيسة لهم فيها أصنام فكانت الأصنام تصبح منكوسة – مقلوبة على رءوسها – فركبهم الغيظ والغضب وقالوا : ضعوه فى مخرأة العماليق

فلما وضعوا التابوت فى مخرأة القوم أصابهم الباسور ..

فقالوا :

أخرجوا هذا التابوت من بلدكم .

فتساءلوا :

أين نضعه ؟ .

(١) البقرة : ٢٤٨ .

قالوا :

ضعوه فى بعض القرى .

فحملوه إلى قرية ازدوة – قرية من قرى فلسطين – فأصاب أهلها داء فى رقابهم .. ولما عظم بلاؤهم وعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به قالت جارية من سبى بنى إسرائيل :

ردوه إلى بنى إسرائيل حتى تخلصوا من هذا الداء .

فقال العماليق :

كان التابوت نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فاختلف العمليق كيف يردونه إلى بنى إسرائيل فقال بعضهم : نضعه على عجلة بين ثورين .

وقال آخرون : نضعه على بقرتين إلى البرية أو نرسله فى الأرض نحو بلاد بنى إسرائيل .

وبينما بنو إسرائيل يتحاورون ويجادلون فى أمر طالوت اذرأوا التابوت فى الهواء حتى نزل بين يدى طالوت وبنى إسرائيل ينظرون فى فرح وعجب .

وآمن بنو إسرائيل بنبوة شمويل بن بالى وأقبلوا عليه وقالوا : صدقت .

وأحاطوا بطالوت وقالوا : لا ملك إلا طالوت .

لقد أيقن بنو إسرائيل بالنصر .. فهل جاءهم الفتح ؟ كانوا يغلبون الأعداء بالتابوت فلماذا لا يحاربون به الأعداء ؟ .

طلب طالوت من بنى إسرائيل أن يستعدوا لحرب العماليق .. فأقبل الرجال يحملون السيوف والنبل والقسى فتبسم طالوت لما رأى نحو ثمانين ألف من نى إسرائيل فقال : سنجعل التابوت أمامنا لتنزل السكينة فى قلوبنا وينصرنا الله على عدونا .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيَدِهِ إِلَّا قَلِيلًا

مِنهُم ﴾[1]

وخرج طالوت وجنوده الذين أطاعوه من ملأ بنى إسرائيل إلى الصحراء فساروا فيها فنفد الماء الذى معهم وأصابهم العطش وجفت حلوقهم ودب فى أوصالهم الإرهاق والإعياء فقالوا : أيها الملك العظيم طالوت أصابنا العطس وإنتهى الماء الذى حملناه معنا فادع الله أن يجرى لنا نهرا نشرب منه .

فسكت طالوت .. هل أراد أن يختبر مقدرة جنوده على الصبر وتحمل الشدائد ؟ أراد أن يميز الشجاع من الجبان والمؤمن من المنافق والمطيع من العاصى والصادق من الكاذب والجد من الكسلان ؟ .

رأى طالوت فى عطش بنى إسرائيل نهزة – فرصة – فقال : إن الله مختبركم بنهر – نهر الشريعة وهو بين الأردن وفلسطين – فمن شرب من هذا النهر فلا يصحبنى اليوم ولن آذن له أن يحارب معى ومن صبر وغلب شهوته فى الماء فلم يشرب إلا غرفة بيده يذهب بها عطشه فهو من جنودى الذين يقاتلون معى اليوم .

وسار جيش طالوت اللجى وقد نال منهم العطش فإذا بنهر عظيم ماؤه فى غاية العذوبة والحسن ..

هل سيغلب بنو إسرائيل شهوة العطش ؟ هل سيقهرون عذوبة الماء وحسنه ؟ .

اندفع الرجال نحو النهر وألقوا بأنفسهم على بطونهم وراحوا يكرعون ويشربون باليد الواحدة ويلغون كما يلغ الكلاب ويشربون شرب الهيم حتى امتلأت بطونهم وملأوا ما معهم من الأوانى والقرب ..

وبقى بجانب طالوت نحو أربعة آلاف رجل غرف بعضهم غرفة بيده فلم يرو بل برح به العطش ولم يقرب بعضهم الماء .. فقال طالوت :

من عب الماء وغلبته شهوته فى الماء فقد عصى الأمر فهو فى العصيان فى الشدائد أحرى ولا يسير معنا لقتال عدونا وليرجع عنا .

فانصرف من بنى إسرائيل تسعة وسبعون ألفا .

ولما جاوز طالوت ومن معه النهر رأوا جالوت وجنوده يسدون عين

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

الشمس .. كانوا مائة ألف كلهم شاكن فى السلاح .. فقالوا :

يا طالوت عددنا قليل والعماليق عددهم كبير . نحن ضعفاء والعماليق أقوياء . لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . ألا ترى كثرتهم ؟ ألا ترى سلاحهم وعدتهم ؟ .

قال الذين لم يذوقوا ماء نهر الشريعة والذين صبروا وفضلوا الموت فى سبيل الله : إن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد ﴿ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[1].

فتقدم الجيش الصغير نحو جيش جالوت العظيم فقال حزب الإيمان : ربنا أنزل علينا صبرا من عندك وثبت أقدامنا فى لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز وانصرنا على القوم الكافرين .

وخرج جالوت من بين صفوف جيشه نحو جيش طالوت عليه درع قوية شاهرا سيفه فقد كان من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده ونادى بأعلى صوته : من يبارزنى ؟ .

فنظر أصحاب طالوت إلى جالوت العملاق بعيون ملأها الخوف والرعب .. ولم يتقدم أحد لمبارزته وكان داود بن زكريا من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام يرعى الغنم وكان رجلا قصير القامة أصفر الوجه أصغر أخوته – كان له سبعة أخوة فى جيش طالوت – فقال لنفسه : لأذهبن إلى رؤية هذه الحرب .

فلما نهض داود وبينما هو فى طريقه مر بحجر فناداه : يا داود خذنى فى قتل جالوت .

فأخذه ووضعه فى مخلاته .. ثم مر بحجر آخر فناداه : يا داود خذنى فى قتل جالوت .

فالتقطه ووضعه فى مخلاته .. ثم آخر وجعلها فى مخلاته .

(١) البقرة : ٢٤٩ .

وعاد جالوت ينادى :

هل من مبارز ؟ .

فلم يبرز إليه أحد .. فلما رأى طالوت اعراض الناس عن جالوت قال : من يبرز إليه ويقلته فأنا أزوجه ابنتى وأحكمه فى مالى

فأقبـــل داود وقـــال :

أنـــا أبـــرز إليـــه وأقتلـــه .

وخرج داود يحمل مخلاته ومقلاعه فلما اقترب من طالوت نظر إليه بازدراء حين رآه صغيراً قصيراً أزرق ..ثم نادى :

من يريد مبارزتى ؟ .

فخرج إليه داود ثانية وثالثة فسأله طالوت :

هل جربت نفسك بشىء ؟ .

فقال داود :

نعم ؟ .

فتساءل طالوت :

بماذا ؟ .

قال داود :

وقع ذئب فى غنمى فضربته ثم أخذت رأسه فقطعته من جسده .

قال طالوت :

الذئب ضعيف هل جربت نفسك فى غيره ؟ .

قال داود :

نعم دخل الأسد فى غنمى فضربته ثم أخذت بلحيته فشققتهما أفترى هذا أشد من الأسد ؟.

قال طالوت ·

وكانت عند طالوت درع لا تستوى إلا على من يقتل جالوت فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت فقال طالوت لداود : فاركب فرسى وخذ سلاحى .

فركب داود فرس طالوت وأخذ سلاحه ولما مشى قليلا لوى عنان فرسه ورجع فقال اناس :

جبن الفتى .

فقال داود :

إن الله إن لم يقتله لى ويعنى عليه لم ينفعنى هذا الفرس ولا هذا السلاح ولكن أحب أن أقاتله على عادتى ..

وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع .

ونزل داود عن فرس طالوت ورد إليه سلاحه .. ثم أخذ مخلاته فتقلدها وأخذ مقلاعه وخرج إلى جالوت وهو شاك فى سلاحه على رأسه بيضة حديدية فسأل داود : أنت يافتى تخرج إلى ؟ .

قال داود :

نعم .

فعاد جالوت يتساءل ساخرا :

هكذا كما تخرج إلى الكلب ؟ .

فقال داود :

نعم وأنت أهون .

فقال جالوت :

لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع .

ثم تدانيا وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده احتقارا واستخفافا به فوضع داود يده فى مخلاته والتقط منها حجرا ووضعه فى مقلاعه وأداره وقال : **بسم الله** .

فانطلق الحجر كالسهم المارق فأصاب عين جالوت .. وأدخل داود يده فى مخلاته وأخذ حجراً آخر وضعه فى المقلاع وأداره وقال :

بسم الله .

فأصاب الحجر رأس جالوت ووقع على الأرض فوثب داود نحوه كالنمر وحز رأسه وجعله فى مخلاته .. ورجع إلى جيش طالوت وعلى شفتيه بسمة النصر .

والتقى الجمعان جيش طالوت وكله إيمان وثقة بالظفر وجيش جالوت وكله خوف واضطراب بعد مقتل قائدهم العملاق وملكهم الجبار .

وحمل حزب الإيمان على حزب الشيطان .. فنصر الله عز وجل حزبه فكانت هزيمة أصحاب جالوت .

وكان طالوت قد وعد داود ان قتل جالوت يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه فى أمره – ملكه –.

فلما رجع طالوت إلى ديار بنى إسرائيل أنكح داود ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه ووفى له .. فمال الناس إلى داود وأحبوه .. فحسده طالوت وأراد قتله غيلة فعلم ذلك داود ففارقه وجعل فى مضجعه زق – قلة – خمر وسجاه – غطاه وسحب عليه غطاء – ودخل طالوت إلى منام داود الذى هرب فضرب الزق ضربة خرقه فوقعت قطرة من الخمر فى فيه فقال طالوت :

يرحم الله داود

ماكان أكثر شربه الخمر .

فلما أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئا .. فخاف داود أن يغتاله فشدد حجابه وحراسة .

وأتى داود طالوت وهو نائم فى بيته فوضع سهمين عند رأسه وعند رجليه فلما استيقظ طالوت بصر السهام فقال :

يرحم الله داود هو خير منى ظفرت به وأردت قتله وظفر بى فكف عنى .

وأذكى طالوت على داود العيون – الجواسيس – فلم يظفروا به .

وركب طالوت يوما فرسا فرأى داود فركض فى أثره ولكن دادو فر كالريح وهرب منه واختفى فى غار فى الجبل فعمى الله أثره على طالوت .

وقتل طالوت العلماء فلم يبق منهم إلا امرأة كانت تعرف اسم الله الأعظم فسلمها إلى رجل من أصحابه وقال له : اقتلها .

ولكن الرجل لم يقتلها ورحمها وتركها وأخفى أمرها .

وندم طالوت وأراد التوبة .. فأقبل على البكاء حتى رحمه بنو إسرائيل .. وكان يخرج كل ليلة إلى القبور فيبكى ويقول : أنشد الله عبداً علم توبة إلا أخبرنى بها .

فلما أكثر ناداه مناد من القبور : يا طالوت أما رضيت قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتا ؟ .

فازداد بكاء وحزنا .. فرحمه الرجل الذى أمره بقتل المرأة – وكله بقتل

المرأة التى كانت تعرف اسم الله الأعظم – وقال له : إن دللتك على عالم لعلك تقتله ؟ .

فقال طالوت :

لا .

فقال الرجل :

أعطنى موثقا .

فأعطاه طالوت العهود والمواثيق .. فاخبره الرجل بتلك المرأة فقال طالوت : سلها هل لى من توبة ؟ .

فحضر الرجل عندها وسألها : هل لطالوت من توبة ؟ .

فقالت المرأة التى تعرف اسم الله الأعظم : ما أعلم له من توبة ولكن هل تعلمون قبر نبى ؟ .

قال الرجل :

نعم قبر يوشع بن نون .

فانطلقت المرأة ومعها الرجل وطالوت فدعت فجاءهم صوت : مالكم ؟ .

قالوا جئنا نسأل هل لطالوت من توبة ؟ .

فجاءهم صوت يقول :

ما أعلم له من توبة إلا أن يتخلى من ملكه ويخرج هو وولده فيقاتلوا فى سبيل الله حتى تقتل أولاده ثم يقاتل هو حتى يقتل فعسى أن يكون له توبة .

ورجع طالوت إلى داره أحزن مما كان .. كان يخشى ألا يتابعه ولده إذا خرج للقتال فى سبيل الله .. فبكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسده فسأله أولاده : ما بك يا أبتاه ؟ .

قال طالوت :

لن تكون لى توبة إلا إذا خرجتم معى فنقاتل فى سبيل الله حتى نقتل

فقالوا : ولماذا لم تخبرنا ؟ .

وتجهزوا للغزو فقاتلوا فى سبيل الله بين يدى أبيهم حتى قتلوا .

وقاتل طالوت بعد هم حتى قتل - كان ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة - .

وآل الملك إلى داود ومنحه الله النبوة العظية ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾[1] وأتاه النبوة بعد شمويل بن بالى .. وعلمه الله عز وجل مما يشاء .

(١) البقـرة : ٢٥١

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتَهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَامِسَاسَ وَأَنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلِفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾[1] صدق الله العظيم .

(١) طـه : ٩٥ - ٩٧ .

السـامرى

تقدم الكاهن من فرعون وقال :

يولد مولود فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده .

ثارت ثائرة الوليد بن مصعب ولم يسأل ما العمل ؟ إذا كان هذا الطفل اليهودى سيسلب ملكه ويزلزل سلطانه ويخرجه من أرض مصر ويبدل دينه فلم لا يصدر أمرا بذبح جميع أطفال بنى إسرائيل ؟ .

أشار فرعون بصولجانه :

لينطلق جنودى إلى القوابل من النساء فيقتلن كل غلام يسقط فى أيديهن ولا يتركن إلا الجوارى ومن يخالف ذلك فله الموت .

وذبح زبانية فرعون فى طلب ذلك الطفل سبعين ألف .. وقيل تسعون ألفا .. ولما اقترب ولادة يوكابد — أم هارون — وضربها الطلق جاءتها إحدى القوابل وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ع صديقة لها — فقالت :

لينفعنى حبك اليوم .

فعالجتها فلما وقع موسى هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها فقالت :

ماجئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ولكنى وجدت لإبنك حبا وما وجدت مثله قط فاحفظيه .

فلما خرجت جاء عيون — جواسيس فرعون فلفت يوكابد موسى فى خرقة ووضعته فى تنور — فرن — مسجور نارا هل صارت لا تعلم ما تصنع و هل طاش عقلها عندما رأت زبانية فرعون يحملون أسيافهم وأقبلوا نحو دارها ؟ وخرجوا وعيونهم أكثر بريقا من أسيافهم وكأنهم يتوعدونها . ولما خرجوا لم تدريوكابد مكان موسى ولكنها سمعت بكاءه من التنور المشتعل .. لقد جعل الخبير الرحيم النار بردا وسلاما .

وكانت امرأة ظفر على وشك الوضع فتحاملت على نفسها وتسللت تحت جناح الظلام فاخترقت سكك قرية السامرة إلى الجبل فدخلت أحد الكهوف فوضعت غلاما سمته موسى – ولد من سفاح – وأخفت الأم موسى بن ظفر في الكهف وعادت إلى دارها فأمر الله عز وجل جبريل عليه السلام أن يربيه ويقوم بمصالحه فكان يأتى موسى بن ظفر على فرس فيقدم إليه كفه فيضعه فى فيه فرضع العسل واللبن .. وكان جبريل عليه السلام يتردد عليه حتى كبر السامرى ونجا من الذبح .

وخرج السامرى إلى قومه وكانوا يعبدون البقر فدخل فى دينهم . فى الوقت الذى عاش فرعون وأعوانه فى مصر يحكمون القبط وبنى إسرائيل ويفسدون فى الأرض ظلما واستكبارا ويتخذون من نفوسهم أربابا وأنزلوا ببنى إسرائيل الخسف وساموهم سوء العذاب .

وذات يوم دخل موسى مدينة منف وقت القيلولة وقد تغلقت أسواقها ونام الناس فوجد السامرى ونافون القبطى خباز فرعون يقتتلان .. لقد أراد نافون أن يسخر موسى بن ظفر ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه فطلب السامرى نصرة موسى بن عمران وغوثه فقال موسى لنافون :

دعه .

فقال نافون القبطى :

لا شأن لك بهذا وإلا عاقبتك .

فغضب موسى وأراد أن يخلص السامرى ولكن نافون هجم على موسى ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾[1] طعنه موسى بمجمع كفه وقيل : وكزه بعصا كانت معه فقضى على نافون خباز فرعون .

وندم موسى ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[2] أى من أعوانه .. وحمل موسى ندمه على الخضوع لربه عز وجل والإستغفار من ذنبه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[3].

---

(1) القصص : ١٥ .
(2) القصص : ١٥ .
(3) القصص : ١٦ .

وأصبح موسى فى المدينة خائفا يتلفت ويتوقع أن يسلمه قومه أو خائفا من قتل النفس التى قد يؤخذ بها أو ينتظر الطلب وما يتحدث به الناس .

ولما كانت الغداة مر موسى بموسى بن ظفر الذى خلصه بالإمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره فلما أبصر موسى استصرخه على القبطى فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] أى انك لغوى فى قتال من لا تطيق دفع شره عنك .. وأدرك موسى أن السامرى ظاهر الغواية كثير الشر فعزم على البطش بذلك القبطى فاعتقد موسى بن ظفر لخوره وضعفه أن موسى إنما يريد قصده وتوهم السامرى أنه يريده فقال : ﴿ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[2].

الذى قتل نافون خباز فرعون بالأمس موسى ؟ لم يكن أحد يعلم ذلك إلا الله عز وجل والسامرى وموسى .. فلما سمع القبطى قول السامرى تلقفها وانطلق إلى قصر فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى وقال :

خذوه فإنه صاحبنا .

وقال فرعون للذين يطلبون فرعون :

اطلبوه فى بنيات الطرق – هى الطرق الصغار التى تتفرع من الجادة –.

فلما سمع مؤمن آل فرعون – حزقيل بن صبورا وقيل اسمه شمعون وقيل شمعان وكان ابن عم فرعون – ذلك انطلق ساعيا إلى موسى مشفقا عليه فوجده فى بنيات الطريق فقال له : ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[3] فخرج موسى من مدينة منف إلى مدين ..

ولما هرب موسى من فرعون قال :

يارب أوصنى .

---

(١) القصص : ١٨ .
(٢) القصص : ١٩ .
(٣) القصص : ٢١ .

قال الله عز وجل :

أوصيك أن لا تعدل بى شيئا أبداً إلا اخترنى عليه فإنى لا أرحم ولا أزكى من لم يكن كذلك .

قال موسى :

وبما يارب ؟.

قال عز وجل :

بأمك فإنها حملتك وهنا على وهن .

ثم تساءل موسى :

ثم ماذا يارب ؟.

قال تعالى :

ثم أبيك .

فعاد موسى يتساءل :

ثم بماذا يارب ؟ .

قال عز وجل :

أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تركه لها .

فقال موسى :

ثم بماذا يارب ؟ .

قال عز وجل :

ثم ان أوليتك شيئا من أمر عبادى فلا تعنهم - من العناء والمشقة - إليك فى حوائجهم فإنك إنما تعنى روحى فإنى مبصر ومستمع ومشهد ومستشهد .

فقال موسى بن عمران : أى رب أين أبغيك ؟ .

قال تعالى :

ابغنى عند المنكسرة قلوبهم إنى أدنو منهم كل يوم باعا لو لا ذلك لانهدموا .

وبعث الله عز وجل موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون .. فاستهان بهما ولكن موسى عليه السلام كان قوى الظهر مسدد الخطا يستمد العون والتوفيق

من القوى المتين .. ودخل السامرى فى دين بنى إسرائيل يظاهره وكان عظيما من عظمائهم .

ولما عجز فرعون عن مجاهدة موسى عليه السلام خلص إلى ملأ من قومه وائتمروا ليقتلوا موسى عليه السلام .. والتمس موسى وبنو إسرائيل الفرار من مصر وكان يوسف بن يعقوب عليهما السلام قد أوصى إذا خرج بنو إسرائيل من مصر أن يحملوا تابوته إلى الأرض المقدسة .. فتساءل كليم الله : أين تابوت يوسف بن يعقوب ؟.

فهز بنو إسرائيل رءوسهم وقلبوا أكفهم .. لم يكن أحد يعلم مكانه إلا امرأة عجوز فتقدمت وقالت : يانبى الله إنى أعرف مكان التابوت .

فقال موسى عليه السلام :

أين ؟ .

قالت المرأة العجوز :

فى النيل .

واستخرج موسى عليه السلام صندوقا من مرمر وأمر موسى عليه السلام بنى إسرائيل أن يستعيروا من حلى القبط ما أمكنهم .. ففعلوا وأخذوا شيئا كثيرا . ولما بسط الليل رداءه الأسود على الكون خرج موسى عليه السلام وحمل تابوت يوسف بن يعقوب عليهما السلام وخرج معه ستمائة ألف وعشرين ألفا من بنى إسرائيل وكان على ساقة بنى إسرائيل أما أخوه هارون عليه السلام ويوشع بن نون – مؤمن آل فرعون – فكانا على مقدمتهم .

سار كليم الله أول الليل إلى الأرض المقدسة وقد سهل العلى القدير إليها طريقهم ساروا حثيثا يدفعهم الخوف ويعصمهم الإيمان حتى قطعوا رقعة طويلة فترك موسى عليه السلام الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر .

ولما علم الوليد بن مصعب بخروج بنى إسرائيل اشتد غضبه وهاج وماج وأرسل سريعا فى بلاده لتلحقه الجند والعساكر .. ودعا فرعون بشاة فذبحت ثم قال :

لا أفرغ من كبد الشاة حتى يتبع إلى ستمائة ألف من القبط .

وأقبل الناس كالجراد المنتشر .. فلم يفرغ من كبد الشاة حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط فقال :

لاتتبعوهم حتى تصيح الديكة .

فما صاح ديك فى تلك الليلة حتى أصبحوا .. فخرج فرعون فى محفل عظيم وجمع كبير من أولى الحل والعقد خلفه الأمراء والرؤساء والجند وجعل وزيره هامان على مقدمتهم .

وقف بنو إسرائيل أمام بحر لجى هل وقف حائلا دون أمانيهم ؟ وساروهم الخوف والقلق واستولى عليهم الجزع والفزع انهم المطلبون لفرعون وجنوده وهو الذى يجد فى السير ويمعن فى الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم إنهم عبيد آبقون – هاربون – وأتباع مارقون .

ولحق جيش فرعون موسى عليه السلام وبنى إسرائيل عند شروق الشمس فصاروا قاب – قدر – قوسين أوأدنى .

هاج بنو إسرائيل وتقطعت نفوسهم حسرة إن الموت كاد أن يدركهم وحبال فرعون قد اقتربت من رقابهم ..

ولما تراءى الجمعان قال بنو إسرائيل : ﴿ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾[1] ياموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا أما الأول فكانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا وأما الآن فيدركنا فرعون فيقتلنا .

فقال كليم الله فى لهجة الواثق من وعد ربه : ﴿ **كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾[2].

فقال يوشع بن نون :

يا كليم الله أين تدبيرك ؟ هاقد دهتمنا غوائل القدر فالبحر أمامنا والعدو وراءناوليس لنا من الموت مهرب ولا مفر و يا نبى الله أين أمر ربك ؟ .

فقال موسى عليه السلام :

أمامك .

فأقحم يوشع بن نون فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر فذهب به ثم رجع

---

(١) الشعراء : ٦١ .
(٢) الشعراء : ٦٢ .

فقال : أين أمر ربك ياموسى ؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ولا كذبت .

فقال موسى وقد رفع يديه إلى السماء : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا .

فتساءل يوشع بن نون :

ياكليم الله ههنا أمرك ربك أن نسير ؟ .

فقال موسى عليه السلام :

نعم لقد أمرت بالبحر ولعلى أومر الان بما أصنع .

ودنا فرعون وجنوده .. وتسرب الخوف من صدور بنى إسرائيل وسرت فى نفوسهم بارقة الأمل ولكنه لا يلبث أن يرسل شعاعه حتى تطفئه ريح اليأس وعواصف القنوط ويثير فى الأفئدة ثورة يحبسها ماتبقى من رجاء وما يعللهم نبيهم من فرج ورخاء فاستسلموا لقضاء الله .

وأوحى العليم الخبير إلى نبيه : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾[1] وكان العزيز الحكيم قد أوحى تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع إليه وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه كليم الله ؟ .

وضرب موسى البحر بعصاه .. فانفلق بإذن الله ﴿ **فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾[2] أى كالجبل العظيم – الفج بين الجبلين – فقام الماء على حيله كالحيطان وذهبت الظلمات وانحسرت طاغيات اليأس وإذا اثنا عشر طريقا لاثنى عشر سبطا – السبط : الفريق من اليهود – لكل سبط طريق وإذا الشمس والريح يهيئهما الله عز وجل فتجف قاع البحر وتمهد تلك السبل فتصير يبسا ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَساً لَاتَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى** ﴾[3] وكان كل سبط يرى من عن يمينه وعن شماله .. وانسابوا يهرعون إلى بر الأمان والسلام .

واستشرف موسى عليه السلام وبنو إسرائيل بعيونهم فأبصروا فرعون يتأهبون ليسلكوا فى البحر مسالك بنى إسرائيل التى عبروا منها حتى يلحقوا بهم

---

(١) الشعراء : ٦٣ .

(٢) الشعراء : ٦٣ .

(٣) طه : ٧٧ .

فينزلوا بهم أشد العذاب فعاد القلق والإضطراب بعد أن ظللتهم سحابة من الأمن فركبهم الوف وتملكهم الرعب والأشفاق هل يمتد إليهم عدوان فرعون بعد أن فروا من قبضته ؟ هل سينجح فرعون فى عبور البحر ؟ .

إتجهت قلوب بنى إسرائيل وتطلعت عيونهم نحو كليم الله ليدعو ربه حتى يكشف عنهم هذا البلاء المحدق الذى يكاد بدهمهم من حيث لا يشعرون . وهم كليم الله أن يدعو البحر فيرجع إلى حاله حتى يحول بينهم وبين فرعون وجنوده وليكون حاجزا يحجز عنهم ذلك البلاء والبطش الذى يلاحقهم أينما كانوا . ولكن العليم الخبير أوحى إلى نبيه :

أن أترك البحر ساكنا على حاله فلا تضربه بعصاك فيعود إلى حاله لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلا بينك وبينهم فيرجعوا إلى ديارهم سالمين بل سبقت كلمة الله فى هؤلاء .

دنا فرعون وجنوده من البحر فرأى الماء قد قام على جانبى كل طريق كالجبل العظيم فقال فرعون لأصحابه : ألا ترون البحر قد فرق منى وانفتح لى حتى أدرك أعدائى ؟ .

وتردد فرعون وجنوده فى إقتحام البحر وراحوا ينظرون إلى الطرق التى على هيئة الشباك .. فبعث الله عز وجل جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق – شهى – ليتقدم فرعون وأصحابه فى البحر فشمت الحصن – ذكور الخيل -- ريحها فانطلقت وراءها واقتحمت البحر فى أثرها . وتلفت فرعون وجنوده فإذا سبل البحر ممهدة أمامهم فيها يسيرون ومنها إلى بنى إسرائيل يصلون فانتفخت أوداجهم وأعماهم غرورهم وحملهم الصلف والإعجاب والكبر عى أجنحته فقال فرعون لأصحابه :

أنظروا إلى البحر كيف انفلق لأمرى وانصاع لإرادتى حتى أدرك هؤلاء المارقين ؟.

فاندفع جنود فرعون إلى مسالك البحر هل ظنوا أن تلك معجزة لفرعون ؟ هل تقووا بقوته ؟ هل اطمأنوا لنصرته ؟ .

وراح جنود فرعون يحثون خيلهم فى طلب بنى إسرائيل .. ولكن لم يكادوا

يصلون إلى وسط البحر حتى انطبق عليهم ووجد فرعون نفسه عبدا كليل الرأى حقير الشأن لاحول له ولا قوة فكشطت تلك الغشاوة القاتمة المظلمة التى كانت على عينيه وتسرب إلى قلبه شعاع من الحق المبين .. وفى هذا الوقت العصيب آمن الطاغية وقال : ﴿ **آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[1] لما أدرك فرعون الغرق لم يقل : آمنت بالله بل قال :

آمنت أنه لا آله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل فدس جبريل فى فمه حال البحر — الطين الأسود الذى يكون فى أرضه — خشية أن يقول : لا آله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يغفر له فكيف يقبل الله توبة هذا الطاغية الذى أهلك الحرث والنسل وهو فى الرمق الأخير ؟ لقد جازاه على شر أعماله وبئس المصير .

انطبق البحر ﴿ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** ﴾[2] فسمع صوت انطباق البحر شديدا كارعد فسأل بنو إسرائيل كليم الله :

يانبى الله ما هذه الضوضاء ؟ .

فقال موسى عليه السلام :

إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرقين .

فقال بنو إسرائيل غير مصدقين :

يانبى الله ان فرعون لا يموت ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور ولا يحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه بنو الإنسان ؟ .

هل عاودتهم غريزة رسخت فى نفوسهم وباطل تمكن من قلوبهم ووهم تأصل فى عقولهم ؟ .

أمر العلى القدير البحر فلفظ جثة فرعون على ساحله حتى لا يكون فى ابتلاع البحر إياها سبيل من القول والتقول لفرعون ربما قيل :

إنه يعيش فى عالم آخر .

وربما افتروا وكذبوا .. فخرس العليم الحكيم ألسنتهم وألقى البحر الجسد المحطم والسلطان المهدم فنظر إليه بنو إسرائيل فى دهش وذهول .. وأغرق الله

---

(١) يونس : ٩٠ . **(٢) الصافات : ٨٢ .**

الجبابرة الطغاة العاتين فكان الهلاك جزاء لفرعون وجنوده على كفرهم ثم نجى الله عز وجل فرعون ببدنه ليكون آية لمن خلفه ناطقة على تلك المعجزة ؟ .

وسار بنو إسرائيل فى صحراء سيناء وكان الحر شديدا فكاد أن يحرقهم فأشفق عليهم كليم الله فدعا ربه أن ينجيهم من هذا السعير فبعث الله عز وجل سحابة حجبت عنهم سياط الشمس فساروا فى ظلها آمنين وكانت تلك أحدى الأنعام التى تفضل بها رب العالمين .

وعض الجوع بنى إسرائيل فصرخوا :

جعنا ياموسى .

فدعا موسى عليه السلام ربه أن ينقذ بنى إسرائيل من الجوع فإستجاب اللطيف الرحيم وأنزل عليهم المن والسلوى فأكلوا طعاما حلوا لذيذا حتى شبعوا وملأوا بطونهم وأحسوا بالسعادة والهناءة .. ولكنهم شعروا بالعطش فقالوا : نريد ماء ياموسى .. عطشنا ياكليم الله .. أغثنا .. أدركنا .

فتوجه موسى عليه السلام إلى ربه . فإستجاب له وقال :

﴿ **اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ** ﴾[1] فضرب موسى بعصاه الحجر الذى كان يحملونه معهم فيتفجر مه إثنتا عشرة عينا لكل سبط عين منه تنبجس ثم تتفجر ماء زلالا عذابا صافيا سلسبيلا ففرح بنو إسرائيل عندما رأوه وراحوا يشربون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم .

ثم قالوا :

﴿ **يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنَ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا** ﴾[2].

هل ملوا المن والسلوى – طعامان شهيان بلا كلفة ولا سعى لهم فيه فقد كان الله عز وجل ينزل المن باكرا ويرسل عليهم طير السلوى عشيا – لا يريدون أن ينسوا عيشتهم فى مصر ؟ كانوا نتانى أهل كرات وأبصال وأعداس .. نزعوا إلى عكرهم عكر السوء واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم ؟ .

(١) **البقرة** : ٦٠ .
(٢) **البقرة** : ٦١ .

فوبخهم كليم الله وقال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾[1].

أتستبدلون البقل والفوم والعدس والبصل الذى هو أدنى بالمن والسلوى الذى هو خير ؟ إنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه .

ومر بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم فقالوا : ياموسى اجعل لنا آلها كما لهم آله .

فتعجب كليم الله ودهش وقال : يابنى إسرائيل أنتم قوم تجهلون وأخذ كليم الله يذكرهم بنعم رب العالمين الكثيرة عليهم وأخذ يقول :

أعبدوا الله الذى لا آله إلا هو الذى أنعم عليكم النعم العظيمة ولا تعبدوا أحداً غيره

فهل يطلب موسى لبنى إسرائيل آلها غير الله تعالى وقد فضلهم على العالمين — على عالمى زمانهم فقد فضلهم بإهلاك عدوهم وبما خصهم به من الآيات — .

واغتنمها السامرى — موسى بن ظفر — وعلم أن قومه يميلون إلى عبادة العجل ..

ورأى كليم الله أن بنى إسرائيل محتاجون إلى منهاج يسيرون عليه وشرع يركنون إليه فسأل موسى ربه كتابا به يهتدون وإلى حكمه يرجعون .. فأمر الله جل ثناؤه موسى عليه السلام أن يتطهر وأن يصوم ثلاثين يوما ثم يأتى إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه فيتلقى أمره فى كتاب يكون لبنى إسرائيل المرجع والمآب .

اختار كليم الله من قومه سبعين رجلا واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون وزيرا يقوم على شؤونهم ويصلح أمرهم ويرعى أحوالهم حتى يعود إليهم يحمل الأمانة الغالية وقال لأخيه هارون : ياهارون إنى ذاهب إلى ربى وأنت خليفتى فى بنى إسرائيل فذكرهم بنعم الله واجعلهم يكثرون من عبادته .

وانصرف موسى عليه السلام لميقات — الميقات الوقت المضروب أو

---

(1) طه : ٨٣ .

الموضوع – ربه وقد تعجل فسبق المختارين من قومه وسبقهم إلى الطور فوصل بعد ثلاثين ليلة وقد تأخر عنه سبعين رجلا فقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى** ﴾[1]؟.

قال كليم الله :

﴿ **هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** ﴾[1].

مضت ثلاثون ليلة ولم يرجع موسى بالألواح كما وعد بنى إسرائيل – على غير علم منه – وطال غيابه حتى صار أربعين يوما فأجالوا السخرية بينهم وقالوا : أين موسى ؟ هل تاه فى الصحراء ولم يجد ربه ؟ هل أخلف وعده ونقض عهده ؟ ما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك إلى سواء السبيل .

فتلقفها موسى بن ظفر وتحركت فى نفس السامرى نزوة الشر والفساد فوجدها نهزة – فرصة – فقال لبنى إسرائيل : لدى اقتراح أعرضه ولا أفرضه .

فتساءل بنو إسرائيل :

ماهو ؟ .

قال السامرى :

نصنع لنا آلها ونعبده فليس موسى براجع إلينا .

قال بنو إسرائيل :

اقتراح رائع ليكون موسى مع آلهه ونحن مع آلهنا .

اغتنم السامرى هذه الجهالة الجهلاء وتلك الضلالة العمياء وطلب من بنى إسرائيل الذهب الذى كان معهم – كان ذهبا خالصاً أخذوه من قبط مصر عندما تركوها فرارا من فرعون – واحتفر السامرى حفرة وطلب من بنى إسرائيل أن يجمعوا حطبا .. وأشعلوا نارا وأمر هارون عليه السلام بنى إسرائيل بالقاء الحلى فيها ليصير حجرا واحدا حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ولكن السامرى قد رأى ما فى نفوس بنى إسرائيل من خور وإنحلال واستشف مافى قلوبهم من ميل إلى الكفر منذ أن مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لكليم الله :

---

(١) طه : ٨٣ .
(٢) طه : ٨٤ .

ياموسى اجعل لنا آلها كما لهم آلهة .

ذاب الحلى وانصهر فى النار، فصنع السامرى منه عجلا وأخذ يسويه ويعدل فيه فمر هارون به وهو ينحت العجل بهموت فسأله :

ماتصنع؟. .

قال السامرى :

أصنع ما يضر ولا ينفع .

ثم قال السامرى لهرون :

ادع الله أن يستجيب لدعائى .

فقال هارون :

اللهم أعطه ما سأل على مافى نفسه .

ومضى هارون .. فقال السامرى :

اللهم إنى أسألك أن يخور .

فخار العجل بهموت .

ولما انتهى السامرى من صنعه أخرجه من النار وكان مغبراً بالتراب يكسوه السواد فغسله فلمع بهموت وزاد لمعانه وتألقت أشعة الشمس على جسده الذهبى فخيل لبنى إسرائيل أن الشمس تشرق من جسد العجل بهموت فوجه السامرى إليه الريح يدخل فى دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت – خوار العجل – فالتفت بنو إسرائيل حوله وانحنوا وركعوا وسجدوا فلما رأى السامرى ذلك قال :

هذا آلهكم وآله موسى .

فهلل بنو إسرائيل وقالوا لهارون :

ألا تسمع ياهارون ؟ ألا يعجبك هذا الصوت ؟ أشاهدت شيئا أحسن من هذا العجل ؟ نحن نعبده ولا نعبد آله موسى .. اعبده ياهارون معنا .

فقال هارون :

أهذا العجل يرى ؟ أهذا العجل يسمع ؟ هل يضر أو ينفع ؟ أتتركون الله الذى نجاكم من فرعون وأنزل عليكم المن والسلوى وأخرج لكم

الماء من الحجر وتعبدون عجلا ؟ .

فقال بنو إسرائيل :

يا هارون ان أخاك لم يعد إلينا بالألواح كما وعدنا فاتركنا وشأننا وإلا قتلناك .

فقال هارون :

ياقوم لماذا تقتلوننى ؟ الأنى أقول لكم اعبدوا الله ربى وربكم ؟ لأنى أنصحكم وأقول لكم : اعبدوا الواحد الأحد خالق السماء والأرض ؟ ياقوم إنى أخاف عليكم عذاب يوم شديد ﴿ **يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾[1].

قالوا :

﴿ **لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾[2].

لقد صنع السامرى العجل بهموت فأصبح فتنة بين بنى إسرائيل أظهرت منهم الكافر وأبانت عمن قوى إيمانه واستيقن ومن ضعف إيمانه ونافق فأقام هارون مع البقية الثابتين على وفائهم المتمسكين بإيمانهم وخشى أن يحارب الضالين المارقين خوفا من الثورة والفتنة .

كلم موسى عليه السلام ربه وأخذ الألواح وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل موعظة وتفصيلا لكل شيء فقال :

يارب لقد أكرمتنى بكرامة لم تكرم بها أحداً قبلى .

فقال الله عز وجل :

﴿ **يَامُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾[3].

امتلأ قلب موسى عليه السلام صفاء وإيمانا وسعادة لأن العلى الكبير قد أنعم عليه وعلى بنى إسرائيل بهذه الألواح العظيمة .. ولكنه استشعر من ربه أمرا فقال

---

(١) طه : ٩٠ .

(٢) طه : ٩١ .

(٣) الأعراف : ١٤٤ .

تعالى :

﴿ فَإِنَّا قد فَتَنا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾(١).

رجع كليم الله إلى بنى إسرائيل والغضب يكسو وجهه والحزن يملأ صدره فألقى الألواح من يده وقال لهم :

﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمونِى مِن بَعْدِى ﴾(٢).

وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته ورفع شعر بدنه جبته وذلك أن الغضب جمرة تتوقد فى القلب وهجم على أخيه هارون فقبض على لحيته بإحدى يديه وأمسك بالأخرى خصلة من شعر رأسه وراح يهزه هزا عنيفا وقال :

كيف تركتهم يعبدون العجل ؟ كيف تتركهم يصنعونه ؟ مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبع طريقى فيهم ؟ فترد شاردهم وتحارب مفسدهم ؟ .

فتساقطت نفس هارون هما وحزنا وحسرة وأقبل على أخيه يسترحمه ويهدىء من ثورته وغضبه فقال فى لين :

﴿ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين ﴾(٣) .

فلما علم كليم الله أن أخاه هارون خشى أن يحارب المارقين الشاردين أن يقول موسى : فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى .. فسكت عن كليم الله الغضب لم لا يعالج حال بنى إسرائيل بحسن الرأى والحزم لقد رجع بعد لقاء ربه أربعين ليلة ومعه التوراة فيها شريعة بنى إسرائيل ماذا يفعل بعد أن عبدوا غير الله ؟ لقد عكفوا على العجل بهموت وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط مثله ونسى السامرى ما كان عليه من الإسلام هل يرون أن بهموت لا يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ؟ هل يملك العجل لهم خيراً أو نفعا فى دنياهم أو أخراهم ؟

(١) طه : ٨٥ .
(٢) الأعراف : ١٥٠ .
(٣) الأعراف : ١٥٠ .

لم لا يلتفت إلى منبع الفتنة ورأس البدعة وداعية الضلالة فتساءل : فما خطبك يا سامرى ؟ ماشأنك وما قصتك ؟ .

قال موسى بن ظفر :

﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾(١).

رأيت جبريل عليه السلام وهو فى صورته التى ينزل بها إلى الأرض – هو الذى أرضعه وتولى مصالحه وهو طفل – فقبضت قبضة من تحت قدمه – أو من تحت حافر فرسه – فألقيتها علىٰ بهموت فكان له خوار – أحالت هذه القبضة كوم الذهب إلى عجل له خوار – .

لقد لاحظ السامرى أن فرس جبريل لما تقدم فرعون وجنوده لا يضع حافره على شىء إلا صار حيا فأخذ من تراب أثر الحافر بعضا .. فلما صاغ العجل بهموت من الذهب ألقى التراب على فم العجل فصار له خوار .

وقيل لما ألقى السامرى قبضة التراب على العجل بهموت صار عجلا ذا لحم ودم وخوار صوت البقر ولكن الصحيح أن العجل بهموت صاغه السامرى من ذهب بحيث إذا استدبر الريح خرجعت الريح من فمه ولها صوت البقر وهو الخوار .

قال موسى عليه السلام للسامرى :

﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾(٢).

جعل الله عز وجل عقوبة السامرى العزل والنفى فلا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة .

وهم كليم الله أن يقتل السامرى فقال تعالى له :

لا تقتله فإنه سخى .

إن للسامرى موعدا لعذابه – يعنى يوم القيامة – .

(١) طه : ٩٦ .
(٢) طه : ٩٧ .

ثم قال موسى عليه السلام :

﴿ وانظُرْ إلَى إلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴾[1].

ياسامرى أنظر إلى العجل بهموت الذى دمت وأقمت عليه وملازما لنحرقنه حتى يصير رمادا ثم لنطيرنه فى اليم .. ثم أقبل موسى عليه السلام على بنى إسرائيل فقال لهم :

﴿ إنَّمَا إلَهُكُمُ اللهُ الَّذِى لا إلَه إلَّا هُو وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾[2].

أعلن كليم الله حقيقة العقيدة فإن الله هو الآله المعبود لا العجل .

ثم قال موسى عليه السلام :

ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ .

قالوا :

ما أخلفنا موعدك بإختيارنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فصورها لنا السامرى وأخرج لنا عجلا جسداً له خوار فأضلنا عن الطريق المستقيم .

وندم بنو إسرائيل على سقطتهم واستغفروا ربهم وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين .

فقال كليم الله :

إنكم ظلمتم أنفسكم بإتخاذكم العجل .

فتساءل بنو إسرائيل :

فأى شىء نصنع حتى يغفر لنا ربنا خطايانا ؟.

قال موسى عليه السلام :

توبوا إلى بارئكم .

فسألوه أن يبين لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة .. فقال كليم الله : عليكم بقتل أنفسكم اكسروا حدتها واكبتوا شهوتها وطهروها من الشر والإثم وجردوها عن كل مشتهى مرغوب وأقصوها عن كل مرجو مطلوب حتى يصغر شأن النفس

---

(1) طه : ٩٧ .

(2) طه : ٦٨ .

الآثمة ويهون خطبها ويحقر أمرها .

فروض بنو إسرائيل أرواحهم وعذبوا نفوسهم وأقبلوا على نبيهم .. فتاب التواب الرحيم عليهم .

أما موسى بن ظفر الذى كان رأس الضلالة المنكرة ومنبع الفتنة فقد اجتنبه بنو إسرائيل و لم يخالطوه فهرب وجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالقاتل لبعده عن الناس وبعد الناس عنه وابتلى بالوسواس فصار وحشيا لا يألف ولا ويؤلف ولا يدنو من الناس وإن له لموعدا لن يخلفه يوم القيامة يوم يساق إلى النار آثما ليعذب بما جنت يداه وبئس مصير الظالمين .

وأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام :

إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا فإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدى فقم مقام العبد الحقير الذليل وذم نفسك فهى أولى بالذم وناجنى حين تناجينى بقلب وجل ولسان صادق .

فقال كليم الله عليه السلام :

الهى كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ؟ .

فأوحى الله عز وجل إليه :

ياموسى الآن شكرتنى .

﴿ وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنَ اللهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللهَ انَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[1]

صدق الله العظيم .

(١) التوبة : ٣٠ .

عــزيــر

كان عزرا أحد أحبار بنى إسرائيل وأحد علمائهم الذين يحسنون القول وقد ورد ذكره فى كتب اليهود المقدسة ولما جعلته طائفة من اليهود ابن الله : عزرا ابن الله .

سبحانه وتعالى آله واحد فرد صمد ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ * وَلمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾[1] .

وكان رد القرآن العظيم عليهم أن صغر اسم عزرا إلى عزير لماذا ؟ حتى لايعطيه الناس أكثر من قدره ؟ ليعلموا جميعا أن عزرا الذى سماه القرآن عزيرا ليس إلا واحدا من خلقه الكثيرين ؟ بماذا يزيد عنهم عزيز لقد وهب الخالق البارىء عزير العلم ولكن هل يخرج العلم إنسانا عن بشريته ؟ إن الأنبياء عليهم السلام بشر .. فهل جعلتهم النبوة ملائكة ؟ كان أمر بنى إسرائيل عجبا . ما أكثر فضل الله ونعمه عليهم ولكنهم لم يشكروا أنعامه وأنكروا الجميل وجحدوا المعروف إذا كان ذلك حالهم مع الخالق فماذا فعلوا مع الناس ؟ قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع العزيز الحكيم عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم .

ولما ملك داود عليه السلام ملك بنى إسرائيل كانت أيامه كلها خير وبركة وجاء ابنه سليمان عليه السلام فحكم بنى إسرائيل فأقام العدل ونصب ميزان الحق فعاش بنو إسرائيل عيشة رغدة لم يروا مثلها على مر التاريخ .. ثم انغمسوا فى الشهوات والملذات ونسوا الخالق الرزاق فنسيهم الله عز وجل وعادوا إلى ماكانوا عليه من ضعف وفجور وإنحراف .

وعلم بختنصر – قائد جيش العراق – حالة ضعف بنى إسرائيل فسار بجيشه إلى أورشليم – بيت المقدس – فلم يجد عناء فى الإستيلاء عليها وقتل وأسر ودمر كل شىء قابله وخرب الديار فلم ينج إلا نفر قليل من بنى إسرائيل هرب فريق منهم إلى مصر وفريق إلى يثرب وفريق إلى أرض خيبر .

---

(١) الأخلاص : ٤٥٣ .

وخرب بختنصر دور وزروع اليهود وهدم معابدهم وحرق ما وقع فى يده من نسخ التوراة – ونجا من ألسنة النيران نسخ التوراة التى أخفاها أحبار بنى إسرائيل ورهبانهم فى أماكن لا يعرفها غيرهم – ومات العلماء الذين كانوا يحفظون التوراة عن ظهر قلب .. ولم يبق منهم إلا عزرا .

نظر بختنصر إلى الأسرى فأمر بقتل القادرين على حمل السلاح من بنى إسرائيل وترك النساء والأولاد والعبيد لأهل بابل .. وكان عزرا واحدا من الأولاد الذين لم تتجاوز أعمارهم العاشرة من سلالة هارون عليه السلام .

ولما أحرق بختنصر التوراة قال :

إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأى امرىء أن يعرف ماصنعت .

وعاد بختنصر بجيشه والغنائم الكثيرة والأسرى الذين بلغ عددهم من الصبيان تسعين ألف طفل .. وسكن عزرا بابل فى عصر الملك ارتحششتا الطويل الباع . وشب فتيان بنى إسرائيل وكبرت فتياتهم وكثروا وتناسلوا .

ولما كان عزرا وارثا لعلم بنى إسرائيل عن أبيه عن جده اللذين كانا من العلماء بشريعة موسى وهارون عليهما السلام فقد كان كارها لحياة الذل التى يعيشها فى بابل فى الأسر ولكنه كان ورعا يقرأ التوراة ويعمل بم جاء فيها ويعظ بنى إسرائيل والبابليين معا ويعلمهم أمور دينهم وكان على يقين أن مع العسر يسرا .

وذات ليلة استشعر عزرا أنه لم يعد يطيق صبرا على البقاء فى حياة الأسر ورأى أنه لابد من الفرار من بابل إلى بيت المقدس ولكن ماذا يصنع وهو الآن أب وله أولاد وزوجة وعنده خادم ؟ لو كان بمفرده .. ؟ .

ولما سكن الليل وآوى الناس إلى مضاجعهم قال عزرا لأهل بيته : لقد عزمت على الرحيل إلى الأرض المقدسة .. أرض آبائى وأجدادى .

فقالت زوجته :

أتفكر فى العودة بعد ثلاثين عاما ؟ .

وقالت الخادم :

ماذا تصنع فى قرية خربة وحدك ياسيدى ؟ هل تأمل أن

تجد فى أورشليم مايؤنس وحشتك إلا الوحوش المفترسة والطيور الجارحة ؟ .
فقال عزرا :

هناك ربى سيؤنسنى .

كان عزرا بن شرخيا مستجاب الدعوة أعطاه الله الحكمة و لم يكن أحد من بنى إسرائيل أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه .

كان عزرا فى الأربعين من عمره وكانت خادمه بنت عشرين سنة لما ركب حماره وخرج تحت ستر الظلام من مدينة بابل يحث دابته على سرعة السير

ولما أشرقت الشمس ولفحت وجه عزرا بسياطها لجأ إلى حديقة مخضرة العود وارفة الظلال دانية القطوف فيها البلابل تصدح وفيها الطيور تطرب فقضى ساعة مستمتعا بالحياة والجمال والجلال .

ثم ركب عزرا حماره فمر بدير هزقل على شاطىء دجلة ويمم وجه شطر بيت المقدس وأخذ يفكر فى سر الكون وعظمة الوجود .

نزل عزرا عن حماره فملأ سلة من تمرات التين والعنب واعتصر بعض العنب ملأ بها إناء من الجلد ثم ركب حماره واستأنف مسيره فضل الطريق .. اضطرب الطريق أمامه واشتبهت معالم الجهات ؟.

وصل عزرا قرية خربة ليس فيها آثار للعمران سقطت جدرانها على سقفها ووجد الخراب منتشرا فى أرجائها ولم يجد حركة لإنسان قط تحدث عن قوم باد أهلها ورأى عظاما بالية وأطلالا عافية فعرف أنها أورشليم وتلك آثار المذبحة التى أوقعها بختنصر منذ ثلاثين عاما .

ترك عزرا أورشليم وراء ظهره وآثر أن يتخذ لنفسه مكانا فى مغارة أو كهف فى أحد الجبال المحيطة ببيت المقدس فكيف يعيش بين أنقاض متهدمة وبقايا أجساد بالية ؟ .

دخل عزرا احدى المغارات فعقل – ربط – حماره فى أحد أركانها وعلق ركوة – قصعة أو قلة – الشراب فى مكن ظنه باردا ووضع سلة التين والعنب بجانبه وأسند ظهره إلى جدار المغارة حتى يجمع شتات نفسه ويسترجع قوته وفكره وأخرج عزرا خبزا يابسا وألقاه فى العصير ليبتل وراح يأكل .

استلقى عزرا على ظهره لينال قسطا من الراحة فقد طاب له المكان وأطلق العنان لعقله يفكر فى هذه القرية الخاوية على عروشها وهذه الأموات وكيف تنشر تلك الأجساد وأنى تبعث بعد أن صارت عظاما نخرة وأجسادا بالية ؟ ولا حقته صور بيت المقدس الخربة تناوش وتستحوز على فكره وقلبه وخياله .. كم ألفا من الرجال يستطيعون تعميرها ؟ متى تعود الحياة والحركة إلى هذه القرية وإلى سائر القرى فى بلاد الشام بعد أن خربها بختنصر وجنوده ؟ إنها مسألة تحتاج إلى آلاف الرجال وعشرات السنين .. هل حرك منظر بيت المقدس الخرب فى أعماق عزرا بواعث الإيمان بعظمة الخالق عز وجل وقدرته ؟ .

قال عزرا فى إعجاب واكبار :

﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[1]؟ .

لم يشك عزرا أن الله عز وجل قادر على أن يحييها ولكن قالها تعجبا .

استحال تفكير عزرا إلى سهوم ووجوم وأسلمه التعب والتفكير إلى نوم عميق .. لم يكن نوما كما يعرف الناس أغمض عزرا عينيه وتخاذلت ركبتاه ودخل فى نوم مشتمل وكأنه لحق بأهل بيت المقدس الأموات فقد بعث الله عز وجل ملك الموت فقبض روحه فلم يعد يشعر بشى مما يجرى حوله .

مرت على خروج عزرا من مدينة بابل أعوام وأعوام وزوجته وأولاده وخادمه ينتظرون عودته ولكن عزرا كان ملقى فى مكانه جسداً بلا روح وعظامه مهشمة المفاصل .. وتولى ملك بابل ملك طيب القلب رق لبنى إسرائيل عندما عرف ماحل بهم من كوارث وأذن لمن أراد منهم العودة إلى بلاد الشام .

وأراد العلى القدير أن يفصل فى قضية حار الناس فى أمرها واختلفوا فى تقريرها بحكم يلموسنه بأيديهم أو يقع تحت حسهم وأبصارهم فبعث ملكا حرك قلب عزرا ليعقل قلبه وخلق عينيه لينظر بهما فيعقل ثم جمع العزيز الحكيم عظامه وسوى خلقه وكسى عظامه لحما وجلدا وشعرا ثم نفخ فيه الروح فاستوى جالسا يفرك عينيه ويتمطى وكأنه منتبه من نومه

فسأله الملك : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾[2] فى مقامك هذا ؟ .

(١) البقرة : ٢٥٩ .

(٢) البقرة : ٢٥٩ .

فنظر عزرا إلى ظل الشمس .. هاهى تميل إلى المغيب . لقد دخل هذه المغارة فى وقت الضحى . إذن لقد نام بضع ساعات .. فقال :

﴿ لَبِثْتُ يَوْماً ﴾(١).

ثـم عاد عزرا يتأكد من أن الشمس لاتزال قائمة فلما رآها تميل إلى الغروب قال :

﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾(٢).

فقال الملك :

بل لبثت مائة عام .

مائة عام ؟ انها رقدة طويلة وزمن مديد ألا تتبدل فيه الأشياء وتتغير ؟.

لما رأى الملك دهش وعجب عزرا قال له :

– لبثت مائة عام تسكن هذه الأجداث – القبور – ويجودك الطل – المطر الخفيف – وتهضب – تمطر – عليك السماء وتمر عليك السافيات الذاريات – الرياح – ومع هذه السنين الطويلة والأزمات المتعاقبة ﴿ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾(٣).

نظر عزرا إلى قلته فإذا عصير العنب كما هو لم يفسد وإذا بالخبز الجاف لم يزل جافاً لم يتغير ومازال على حاله التى تركها عليها فعجب عزرا وربا الإعجاب فى صدره يسمو ويرتقى ويحلق إنها بلا شك آية من آيات الله القادر على كل شيء .. ولكن بقى شيء .. ما هو ؟! إنه حماره الذى عقله فى ركن من أركان المغارة ..؟

فقال الملك :

– ﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾(٤).

نظر عزرا نحو مربط حماره فرآه مجموعة من العظام النخرة .. ثم عادت عيناه إلى الركوة التى فيها العصير والخبز الجاف ثم رفع عينيه إلى السماء فى خشوع وضراعة .. فقال الملك :

– إنها إرادة الله ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾(٥) تدفع باطل المبطلين وكفر الكافرين فيؤمنون بالحق المبين . هل هذا يكفى ؟ هل هناك شيء آخر ؟

قال الملك :

---

(١) البقرة : ٢٥٩ . (٢) البقرة : ٢٥٩ .
(٣) البقرة : ٢٥٩ . (٤) البقرة : ٢٥٩ . (٥) البقرة : ٢٥٩ .

- ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾[1]

نادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من ناحيته وصفت هيكلاً عظمياً ثم زودها بالعروق والأعصاب ثم كساها لحماً ثم أنبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيها بأمر الله فتحرك الحمار وقام واقفاً على قوائمه الأربع ورفع رأسه إلى السماء ناهقاً .

أراد العليم الخبير أن يريه كيف يحيى القرية بعد موتها ؟ تبين له أن الله عز وجل قادر على كل شيء ؟ قال عزرا :

- ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

أخيراً اعترف ..؟ ملأ اليقين قلبه ؟

خرج عزرا من المغارة وركب حماره هل سيعود إلى بيت المقدس فيجدها خراباً كما رآها ؟

شرع عزرا يتعرف الطريق إلى محله وقد تبدلت المعالم وتحولت المنازل ورأى قرية عامرة بأهلها فبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر حلماً بعيداً واستوقف بعض المارة :

- هل تعرفون بيت عزرا بن شرخيا ؟

عزرا بن شرخيا ؟ من هو ؟ هذا رجل كنا نسمع عنه من زمن بعيد .. ولكن سر إلى الشمال قليلا ثم إتجه يمينا واسأل فلعلك تجد هناك من يدلك على بيت عزرا .

سارا عزرا شمالا ثم إتجه يمينا ووقف أمام أحد الأبواب فطرقه فخرجت إليه عجوز ذوى عودها وقد عشى بصرها قد أتى عليها مائة وعشرين سنة فسألها

(١) البقرة : ٢٥٩ .

(٢) البقرة : ٢٥٩ .

عزرا :
ياهذه ألا تعرفين منزل عزرا بن شرخيا ؟ .
فقالت العجوز : من أنت أيها السيد وماذا تريد ؟ .
قال عزرا : أريد منزل عزرا بن شرخيا .

فخنقت العجوز العبرة وجادت عيناها بدمع هتون وقالت فى صوت يفيض حزنا : لقد ذهب عزرا ونسيه الناس وما رأيت من حقبة بعيدة من ذكر عزرا إلا الآن

ثم تساءلت لم تخبرنى ... من أنت ؟.
قال عزرا بن شرخيا : أنا عزرا .
فهزت العجوز رأسها استنكارا وقالت : يابنى ألا تستحى أن تدعى أنه أنت ؟.

فقال عزرا :
أنا عزرا أماتنى الله مائة عام وهاقد بعثنى إلى الوجود وردنى إلى الحياة .

فاضطرب أمر المرأة العجوز ووقفت حائرة . ماذا يقول ؟ ألم يذكر الحقيقة ؟ وهل يصدقه إنسان ؟ انه مازال شابا فى الأربعين من عمره وجاءه صوت المرأة العجوز فأخرجه من ذهوله وحيرته : سبحان الله فإن عزرا فقدناه منذ مائة عام فلم نسمع له بذكر .

فقال عزرا بن شرخياً :
أنا عزرا نفسه .

فتساءلت العجوز :
لقد كان لعزرا خادم فهل تعرف اسمها ؟ .

قال عزرا :
نعم .. اسمهما أتشر وكان عمرها عشرين سنة عندما فارقت أهلى فإذا كانت على قيد الحياة كان عمر ها الآن مائة وعشرين عاما .

فتبسمت المرأة العجوز وكست وجهها ظلال الفرحة وقالت :
أنا أشتر
وان عزرا كان مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء

وما طلب أمرا الا تقبل منه الله فإذا كنت عزرا فادع الله أن يردعلى بصرى ويصح جسمى حتى أراك فإن كنت عزرا عرفتك .

فمسح عزرا بيده على وجه أتشر ودعا الله عز وجل .. ولم يكد يتم دعاءه حتى كانت خادمه أتشر ذات وجه وضيء وتفتحت عيناها وصارت تبصر أحسن مما كانت .. فتأملت وجه عزرا وقالت من خلال دموعها : أشهد أنك عزرا وأننى أراك الآن كما كنت يوم فارقتنا .

قبلت أشتر يدى ورجلى عزرا .. ثم انطلقت وكأنما كشطت من عقال إلى القوم من بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن لعزرا شيخ تخطى المائة وبنى بنيه شيوخ فى المجلس فنادتهم وقالت : هذا عزرا قد جاءكم .

خيم الصمت فجأة على كل من فى المجلس يتعجبون لما يسمعون ؟ من عزرا هذا الذى جاء بعد مرور مائة عام ؟ .

كذبوها .. وقالوا :

ماهذا الخرف – فساد العقل من الكبر – ؟ .

فقالت أشتر : أنا أتشر مولاتكم دعا عزرا لى ربه فرد على بصرى وشفى ساق وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه

وطلع عليهم عزرا بن شرخيا رجلا وافر المنة مستوى الخلق شديد الخلق فقال : أنا عزرا بن شرخيا .

نظروا إليه فى عجب .. وأنكروا صفته فكيف يصدقونه وفيهم أبناؤه وأحفاده منهم من بلغ المائة ومنهم من أخذ بعنق الخمسين وفيهم أترابه وقد برى الدهر عظامهم وأبلى شبابهم ؟ .

وانتشر الخبر العجيب فى المدينة وتجمع الناس حتى ضاق بهم المكان .. فقال ابن عزرا الأكبر :

ان لى فى أبى علامة .

فقال عزرا مكملا :

شامة سوداء بين كتفيه كان يتميز بها ويعرف بصفتها .

وكشف عزرا عن كتفيه فإذا العلامة كما عرفها ابنه الأكبر وكما سمع عنها أحفاده . ولكن شيوخ بنى إسرائيل أرادوا أن تطمئن قلوبهم وتستيقن نفوسهم

وتمحى خيوط الشك بين جوانحهم فقالوا :

ونحن أيضا لنا فى عزرا بن شرخيا علامة .

فتساءل عزرا : ماهى ؟ .

قال شيوخ بنى إسرائيل :

لم يكن أحد فينا يحفظ التوراة عن ظهر قلب سواه .

وقام أحد شيوخ بنى إسرائيل وجاء بنسخة قديمة من التوراة كان بعضهم قد أخفاها تحت الأرض خوفا من أن يحرقها بختنصر كما أحرق غيرها .

وأخذ عزرا يقرأ وهم يراجعون عليه فى النسخة التى بين أيديهم فلم يترك آية ولم يحرف جزءا ولم يخرم لفظا ولم يخطىء حرفا أو تردد فى كلمة ففرح شيوخ بنى إسرائيل وقالوا :

نشهد أنك عزرا .

ثم قالوا : استخرج لنا التوراة التى دفنها أبوك .

فانطلق عزرا إلى ذلك الموضع فاستخرج التوراة .. ولكن قد عفن الورق .. فصافحوه مصدقين وأقبلوا عليه مباركين وقالوا :

اكتب لنا التوراة .

فخرج عزرا يسيح فى الأرض فأتاه الملك : ـ

أين تذهب ؟.

قال عزرا بن شرخيا :

أطلب العلم .

فعلمه التوراة كلها فانطبعت حروفها على صفحة قلبه بمداد من الصدق واليقين .

ورجع عزرا إلى بيت المقدس وقال لبنى إسرائيل :

ان الله حفظنى التوراة .

فجعلوا يدرسونها عنده .. ثم راح يكتب التوراة بوحى أوبالهام من الله .. فإذا كان كليم الله قد كتب التوراة ووضعها فى تابوت العهد أو بجانبه فقد فقدت

قبل عهد سليمان عليه السلام فإنه لما فتح التابوت لم يجد غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما تراه سفر الملوك الأول فقام عزرا وكتب التوراة بالحروف الكلدنية – اللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التى نسى اليهود معظمها – ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوف عزرا ففرح اليهود لما وجدوا التوراة المدفونة متساوية لما كتب عزرا وافتتن به بعض بنى إسرائيل وقالوا : أحيا الله عزرا بعد أن أماته مائة عام فلو لم يكن ابنا لله ما أحياه ﴿ **عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ** ﴾[1].

لقد قدس بعض اليهود عزيرا فضلوا وما ازدادوا إيمانا بل ازدادوا كفراً فسبحان الله أن يكون له ولد أو يكون له شريك فى الملك وتعالى عما يصفون .

قال رسول الله ﷺ :

« أوحى الله إلى أخى العزير : يا عزير ان أصابتك مصيبة فلا تشكنى إلى خلقى فقد أصابنى منك مصائب كثيرة ولم أشكك إلى ملائكتى ، ياعزير أعصنى بقدر طاقتك على عذابى وسلنى حوائجك على مقدار عملك ولا تأمن مكرى حتى تدخل جنتى فاهتزعزيز يبكى فأوحى الله إليه : لا تبك ياعزير فإن عصيتنى بجهلك غفرت لك بحلمى لأنى حليم لا أعجل بالعقوبة على عبادى وأنا أرحم الراحمين » .

---

(١) التوبة : ٣٠ .

﴿ إنَّ قَارُون كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا انَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إذ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إلَيكَ وَلَاتَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إنَّ اللهَ لَايُحبِّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1]

صدق الله العظيم .

---

(١) القصص : ٧٦ ؛ ٧٧ .

قــارون

ذكر أصحاب رسول الله ﷺ الصلاة يوما فقال خاتم الأنبياء ﷺ :

« من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » .

فمن هو قارون الذى قدمه رسول الله ﷺ فيسبق فرعون وهامان وأبى بن خلف إلى النار يوم القيامة ؟ لقد كان قارون على شاكلة فرعون فى الاستعلاء والطغيان والكبر والعناد والغطرسة .

﴿ إنَّ قَارُونَ كان مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾[1] فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب فهو ابن عم موسى عليه السلام وقد أتاه الله بسطة فى العيش وسعة فى الرزق وكثرة فى الأموال **﴿ مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ ﴾**[2] نجد مكتوبا فى الإنجيل : مفاتيح قارون وقر ستين بغلا غرا محجلة ما يزيد مفتاح منها على اصبع لكل مفتاح منها كنز .. واجتمعت لقارون أسباب السعادة وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل فعاش عيشة البذخ والترف **﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾**[3] فكان يخرج على قومه مرتديا الملابس الفاخرة الطويلة – زاد فى طول ثوبه شبرا – .

قال رسول الله ﷺ :

« لا ينظر الله إلى من جر ازاره بطرا » .

وكفر قارون بالله عز وجل – وقيل بغيه بإستخفافه بقومه بكثرة ماله وولده – فلما بعث الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون – صارت الرسالة لموسى بن عمران بن قاهث والحبوة لهارون – فقال قارون : إن كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان فى هارون فمالى ؟.

---

(١) القصص : ٧٦ .
(٢) القصص : ٧٦ .
(٣) القصص : ٧٦ .

ولما جاوز موسى ببنى إسرائيل البحر وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه هارون حزن قارون ووجد فى نفسه وحسد موسى وهارون فقال لموسى عليه السلام : الأمر لكما وليس لى شيء ؟ إلى متى أصبر ؟.

فقال موسى عليه السلام :

هذا صنع الله .

فقال قارون لموسى عليه السلام :

فوالله لا أصدقك حتى تأتى بآية .

فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاة فحزمها وألقاها فى القبة التى كان ينزل عليه الوحى فيها وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فلما أصبحوا وجدوا عصا هارون تهتز ولها ورق أخضر - كانت عصاه من شجر اللوز - فقال قارون :

ماهو أعجب مما تصنع من السحر .

وكان قارون يسكن القصور ويصطفى لنفسه الخدم ويستكثر من العبيد والحشم ويستمتع من الحياة بما يشبع نهمه ويروى ظمأه هل يريد أن يصل إلى غاية النعيم و وهل للنعيم غاية و .

وكان موسى رجلا حييا ستيرا لا يرى جلده شيء استحياء منه فآذاه قارون ورجال من بنى إسرائيل فقالوا :

مايستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده اما برص أو أدرة واما آفة .

وأراد العليم الخبير أن يبرأه مما قالوه لموسى عليه السلام فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل موسى عليه السلام على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر فجعل يقول :

ثوبى حجر . ثوبى حجر .

حتى انتهى إلى ملأمن بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه .

فذلك قوله عز وجل : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِيَن آمَنُوا لَاتكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى**

فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا ﴾[1].

وأصاب بنى إسرائيل قحط فخرج بهم موسى عليه السلام يستسقون .. فلم يسقوا .. وخرج الثانية .. والثالثة فقال موسى عليه السلام :

آلهى عبادك .

فأوحى الله تعالى إليه : **إنى لا أستجيب لك ولا لمن معك لأن فيهم نماما قد أصر على النميمة .**

فتساءل كليم الله :

يارب من هو حتى نخرجه من بيننا ؟.

فقال عز وجل :

ياموسى أنهاك عن النميمة وأكون أنا نماما ؟ .

فتاب بنو إسرائيل بأجمعهم .. فنزل المطر وسقوا .

ولما نزلت الزكاة أتى قارون كليم الله فصالحه عن كل ألف دينار دنياراً وعلى كل ألف درهم درهما وعلى كل ألف شيء شيئا وعلى كل ألف شاة شاة . وأتى قارون بيته فحسب ماله فوجده كثيرا جداً .. يقولون : إن قارون كان واقفا على سر الصناعة أى الكمياء أى احالة المعادن الخسيسة إلى معدن نفيس وهو الذهب .

جمع قارون بنى إسرائيل وقال لهم : يابنى إسرائيل ان موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم .

فقالوا :

أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت .

فحمل الشر والبغى والحقد قارون فأحضر امرأة بغيا وجعل لها جعلا — مالاً — على أن ترمى موسى عليه السلام بنفسها . ثم أتى موسى عليه السلام وقال له :

ان قومك اجتمعوا فاخرج إليهم لتأمرهم وتنهاهم .

فخرج كليم الله إليهم وقال لهم :

---

(١) الأحزاب : ٦٩ .

يابنى إسرائيل من سرق قطعناه – قطعنا يده – ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ومن زنى محصنا رجمناه حتى يموت ومن زنى وهو لم ينكح – ليس له امرأة – جلدناه مائة جلدة .

فقال قارون :

وإن كنت أنت ؟.

فقال موسى عليه السلام :

وإن كنت أنا .

فقال قارون :

فإن بنى إسرائيل زعموا أنك فجرت بفلانة .

فقال كليم الله :

ادعها فإن قالت فهو كما قلت .

فأتت المرأة البغى وموسى عليه السلام قائم فى ملأ من بنى إسرائيل يتلو عليهم التوراة فقالت :

ياموسى إنك فعلت بى كذا وكذا .

فأرعد كليم الله من الفرق – الخوف – ثم قام فصلى ركعتين وأقبل على المرأة البغى فقال لها :

أنشدك بالله أصدق قارون ؟ .

قالت المرأة البغى : نعم .

فقال موسى عليه السلام :

يا فلانة أنشدك بالذى أنزل التوراة وفرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا أخبرينى مالذى حملك على مافلعت ؟ .

فقالت المرأة البغى :

أما إذا أنشدتنى فقد أشهد أنك برىء وأنك رسول الله وإن قارون جعل لى جعلا على أن أرميك بنفسى .

وجاءت بخريطتين فيهما دراهم عليهما ختمه وقالت للملأ من بنى إسرائيل : إن قارون أعطانى هاتين وهذا ختمه وأعوذ بالله أن أفترى على الله وإنى أستغفر الله وأتوب إليه

فنظر القوم إلى ختم قارون فعلموا صدق المرأة البغى .. فخر كليم

الله ساجدا لقد خرج من المحنة أصفى نفسا وأعلى مقاما فأوحى الله إليه :

أن ارفع رأسك فإنى أمرت الأرض أن تطعيك .

قال كليم الله لبنى إسرائيل يوما :

ايتونى بخيركم رجلا .

فأتوه برجل .. فسأله موسى عليه السلام : أنت خير بنى إسرائيل ؟.

قال الرجل : كذلك يزعمون .

فقال كليم الله :

اذهب فأتنى بشرهم .

فهذب الرجل .. وعاد وليس معه أحد فسأله موسى عليه السلام : جئتنى بشرهم ؟.

قال الرجل :

أنا ما أعلم من أحد منهم ما أعلم من نفسى .

قال موسى عليه السلام :

أنت خيرهم .

وسأل موسى عليه السلام ربه :

يارب بما تأمرنى ؟

قال عز وجل :

بأن لا تشرك بى شيئا .

فقال كليم الله :

وبمه ؟.

قال الله جل ثناؤه :

وبر والدتك .

فقال موسى عليه السلام :

وبمه ؟.

قال الله عز وجل :

وبر والدتك .

فقال موسى عليه السلام :

وبمه ؟.

قال عز وجل :

وبر والدتك .

وكان قارون ذا نفس لا تعرف الشبع تحب الطمع والشره والإستكثار من المال دون أن تقف عند حد القناعة بل أنها كلما كثر لديها ماتشتهى ازدادت جوعا وطلبا .

كالحوت لا يكفيه شيء يلقمه يصبح ظمآن وفى البحر فمه

لقد استحوز قارون على المال فطغى وتكبر واغتر وتجبر فهل ظن أن أحدا لن يقدر عليه ؟ .

وعظه بنو إسرائيل : انفق مما أعطاك الله فى سبيله ولا تنس فى دنياك أن تأخذ نصيبك فيها لآخرتك فكفر ونسب ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه وعلمه وحيلته وقال :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى ﴾(1).

كان يعنى علم التوراة .. وكان قارون من أقرأ الناس لها ومن أعلمهم بها – كان أحد العلماء السبعين الذى اختارهم موسى للميقات **﴿ واختَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾**(2) وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة وكان على علم بصنعة الذهب فسار فى طريق الطغيان والبغى واستكثر من المال والبطر والإستكبار فلما رأى بنو إسرائيل ذلك نقموا عليه طريقه وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير ليمسح دموع البائسين ويحسن إلى قومه فيكسب الحمد فى الدنيا وينال الثواب فى الآخرة .. ولكن أنى للطاغيه أن تتفتح آذانه للنصيحة التى تلقى إليه ؟.

لقد أشرب قارون قلبه حب المال وزاده الغنى علوا واستكبارا وتمادى فى غيه وطغيانه فخرج على قومه فى زينته راكبا براذين بيض عليها سروج الارجوان عليهم ثياب معصفره وحمل الجوارى بمثل هيئته وزينته – أربعة آلاف وقيل سبعين

(1) القصص : ٧٨ .

(2) الأعراف : ١٥٥ .

ألف من أصحابه – فمر على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكر قومه – بنى إسرائيل – فلما رآه بنو إسرائيل انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إلى قارون فدعا موسى عليه السلام فقال له :

ما حملك على هذا ؟.

قال قارون : ياموسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فقد فضلت عليك بالمال .

ونظر بنو إسرائيل إلى أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر وأطالوا النظر إلى القرمز التى كانت زينة قارون فقال الذين يريدون النصيب الوافر من الدنيا :

﴿ يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1].

لقد حاول قارون أن يفتن الناس ويصرفهم عن كليم الله ويزلزل عقيدتهم ببريق المال والزينة والترف فوثب موسى عليه السلام فخر ساجدا ودعا عليهم فأوحى الله عز وجل إليه :

مر الأرض بما شئت تطعك ..

فجاء موسى عليه السلام قارون فلما دخل عليه عرف الشرف وجهه فقال له :

ياموسى ارحمنى .

فقال كليم الله :

يا أرض خذيهم .

فاضطربت دار قارون وساخت بقارون وأصحابه إلى الكعبين فقال قارون : ياموسى ارحمنى .

فقال موسى عليه السلام :

ياأرض خذيهم .

فأخذتهم إلى ركبهم .. وما زال قارون يستعطف كليم الله وهو يقول : يا موسى ارحمنى .

(١) **القصص** : ٧٦ .

وكليم الله يقول :

يا أرض خذيهم .

فأخذتهم حتى بلغوا الصدور فقال موسى عليه السلام :

ياأرض خذيهم .

فخسف بهم .. وذهبوا ابتلعتهم الأرض وساخت فيها كنوز قارون وقصوره فكانت عبرة لبنى إسرائيل .

فأوحى الغفور الرحيم إلى موسى :

ياموسى استغاث بك فلم تغثه أما لو استغاث بي لأجبته ولأغثته .

ولما رأى قوم موسى عليه السلام ما حل بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله وعرف الذين تمنوا مكانه بالأمس خطأ أنفسهم فاستغفروا وتابوا وقالوا :

﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

فهل نفعت قارون قرابته من موسى عليه السلام ؟ هل أنقذته كنوزه من الخسف ؟ .

ما أغنى عن قارون ماله ولا جمعه ولاخدمه ولا حشمه ولا دفعوا عنه نقمة العزيز الجبار **﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾**[2].

---

(١) **القصص** : ٨١ ، ٨٢ .

(٢) **القصص** : ٨١ .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَماَّ قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوْجنَاكَهَا لِكَيْ لَايَكُون عَلَى الْمُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾[1] صدق الله العظيم .

(١) الأحزاب : ٣٧ .

زيد بن حارثة

انتشرت خيوط الشمس على جبين الصحراء كتاج من الذهب على رأس عروس عندما خرج حارثة بن شراحيل الكعبى وامرأته سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر وزيد بن حارثة .. ثم وقف حارثة ملوحا بيده بينما انطلقت سعدى وابنها زيد إلى طيىء لتزور قومها

وزارت سعدى قومها وزيد معها .. فأغارت خيل لبنى القين بن جسر على أبيات بنى معن فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة – ابن ثمان سنين – واحتملوا زيد بن حارثة إلى سوق عكاظ فعرضوه للبيع فرآه محمد بن عبد الله فجاء إلى زوجته خديجة بنت خويلد وقال لها : رأيت غلاما بالبطحاء قد أوقفوه ليبيعوه ولو كان لى ثمنه لاشتريته .

فتساءلت سيدة نساء قريش : وكم ثمنه ؟ .

قال محمد بن عبد الله : سبعمائة درهم .

قالت خديجة بنت خويلد : خذ سبعمائة درهم فاذهب فاشتره .

فاشتراه محمد بن عبد الله وجاء به إليها .. وقال : لو كان لى لأعتقته .

فقالت خديجة بنت خويلد : وهبته لك فأعتقه .

فلما وهبت خديجة زيد بن حارثة لمحمد بن عبد الله أعتقه .

ولما بلغ حارثة بن شراحيل نبأ فقد زيد قال :

بكيت على زيد ولم أدر مافعل ... أحي يرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وأن كنت سائلا ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فياطول ماحزنى عليه ويا وجل
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى على منيتى ... وكل امرىء فإن وإن غره الأجل
سأوصى به عمرا وقيسا كليهما ... وأوصى يزيد ثم من بعده جبل

يعنى جبلة بن حارثة أخازيد وكان أكبر من زيد ويعنى يزيد أخازيد لأمه

وخرج زيد بن حارثة فى ابل لأبى طالب بن عبد المطلب إلى الشام فمر بأرض قومه فعرفه رجل من كلب فقام إليه وسأله : من أنت ياغلام ؟.

قال زيد بن حارثة : غلام من أهل مكة .

فقال الكلبى : من أنفسهم ؟ .

قال زيد بن حارثة : لا .

قال الكلبى : فحر أنت أم مملوك ؟

قال زيد بن حارثة : مملوك .

قال الكلبى : عربى أنت أم أعجمى ؟.

قال زيد بن حارثة : بل عربى .

فتساءل الكلبى : ممن أهلك ؟ .

قال زيد بن حارثة : من كلب .

قال الكلبى : من أى كلب ؟.

قال زيد بن حارثة : من بنى عبد ود .

قال الكلبى : ويحك ابن من أنت ؟ .

قال زيد بن حارثة : ابن حارثة بن شراحيل .

فتساءل الكلبى : وأين أصبت ؟.

قال زيد بن حارثة : طى .

قال الكلبى : ما اسم أمك ؟ .

قال زيد بن حارثة : سعدى بنت ثعلبه بن عامر .

فانطلق الرجل إلى كلب فلقى حارثة بن شراحيل وأخبره .. فقال حارثة فى لهفة : أين رأيته ؟ أين ذهب ؟ اصحبنى إليه

فقلب الكلبى يديه وقال : لا أعرف أين ذهب ؟ لم أسأله .. كان فى أبل إلى مكة ؟ إلى الشام ؟ لا أعرف .

فصك حارثة كفا بكف .. ثم قال : حمدا للآلهة .. إن زيدا ما زال حيا .

وحج ناس من كلب فرأوا زيد بن حارثة فى مكة فقال لهم : أبلغوا عنى أهلى هذ الأبيات فإنى أعلم أنهم قد جزعوا على .

فقال :

أحن إلى قومى وإن كنت نائيا فإنى قعسيد البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر
فإنى بحمد الله فى خير أسرة كرام معد كابرا بعد كابـر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه فقال : ابنى ورب الكعبة .

ووصفوا له موضعه وعند من هو فخرج حارثة وأخوه كعب بن شراحيل لفداء زيد فلما قدما أم القرى سألا عن محمد بن عبد الله فقيل لهما : هو فى المسجد .

فدخلا عليه فقالا : ياابن عبد المطلب يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العانى وتطعمون الأسير جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه .

فتساءل محمد بن عبد الله : ومن هو ؟ .

فقال حارثة وكعب ابنا شراحيل : زيد بن حارثة .

فقال محمد بن عبد الله : فهلا غير ذلك ؟ .

قالا : وماهو ؟.

قال محمد بن عبد الله : ادعوه فأخبره فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحد .

فقال حارثة وكعب ابنا شراحيل : لقد زدتنا على النصف وأحسنت .

فدعا محمد بن عبد الله زيد بن حارثة وسأله : هل تعرف هؤلاء ؟.

قال زيد بن حارثة : نعم .

فتساءل محمد بن عبدالله : من هذا ؟.

قال زيد بن حارثة : هذا أبى وهذا عمى .

فقال محمد بن عبد الله : فأنا من قد علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما .

فقال زيد بن حارثة بلا تردد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا أنت منى مكان الأب والعم .

فقال حارثة وكعب ابنا شراحيل فى عجب ودهش : ويحك يازيد .. ماذا تقول ؟ أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وعلى أهل بيتنك ؟.

فقال زيد بن حارثة :

نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا

فلما رأى محمد بن عبد الله ذلك وأن زيد بن حارثة قد آثره على أهله نديت عينا محمد بدموع شاكرة حانية وأمسك بيد زيد بن حارثة وخرج به إلى الحجر فقال : يا من حضرا شهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وارثه .

وكاد قلب حارثة يطير من الفرح .. فابنه لم يعد حرا فحسب بل وابنا للرجل الذى تسميه قريش : الصادق الأمين .

وطابت نفس حارثة بن شراحيل وعاد إلى قومه هو وأخوه كعب بعد أن تركا زيدا سيدا فى مكة وآمنا معافى فى بيت سليل بنى هاشم وموضع حفاوة أم القرى كلها .

وتبنى محمد بن عبد الله زيدا وصار يعرف فى مكة كلها :

زيد بن محمد .

ولما بعث الله محمدا – ﷺ – وحمل رسوله عليه الصلاة والسلام تبعة الرسالة .. كان زيد بن محمد ثانى المسلمين .. بل قيل انه أول من أسلم فأحبه النبى ﷺ حبا عظيما وكان بهذا الحب خليقا وجديراً .

ورأى رسول الله ﷺ أن بعض أصحابه كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة فآخى بينهم على الحق والمساواة فآخى بين أبى بكر وعمر بن الخطاب وآخى بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن محمد وبين عثمان بن عفان وبعد الرحمن بن عوف وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وبين عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وبلال بن رباح وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله وبين على بن أبى طالب ونفسه ﷺ .

ولما هلك أبو طالب بن عبد المطلب ثم لحقت به أم المؤمنين خديجة بنت خويلد حزن رسول الله ﷺ حزنا شديدا فقد كان عمه حصنا تحتمى به الدعوة الإسلامية من هجمات العناد والصلف والكبراء والسفهاء وكانت خديجة من نعم الله الجليلة على رسوله ﷺ بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه وتؤازره فى أحرج أوقاته وتعينه على ابلاغ رسالته وتشاركه فى مغارم الجهاد المر وتواسيه

بنفسها ومالها فلما ماتا توالت على النبى عليه الصلاة والسلام المصائب من قومه وتجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى .. فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن محمد رجاء ان يستجيبوا لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه . فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف فجلس إليهم أبو القاسم ﷺ وكلمهم ما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فسخروا منه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس فقعدوا له صفين على طريقه فلما مر رسول الله ﷺ بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما – الرضخ هو الدق والكسر – بالحجارة حتى أدموا بالحجارة رجليه وكان ﷺ إذا أذلقته الحجارة – بلغت منه الجهد – قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون وكان زيد بن محمد يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه شجاجا .. وخلص رسول الله ﷺ منهم ورجلاه تسيلان دما .

ولما انصرف النبى عليه الصلاة والسلام عن أهل الطائف صار إلى حراء ثم بعث زيد بن محمد إلى الأخنس بن شريق ليجيره فقال الأخنس لزيد : أنا حليف والحليف لا يجير .

فعاد زيد بن محمد إلى رسول الله ﷺ وأخبره فقال : اذهب إلى سهيل بن عمرو .

فذهب زيد إلى سهيل فقال :

إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب .

فبعث رسول الله ﷺ زيدا إلى المطعم بن عدى فأجابه إلى ذلك .. ثم تسلح وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد ثم بعث زيدا إلى رسول الله ﷺ أن أدخل فدخل أبو القاسم ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده .. ثم انصرف إلى منزله .

وكانت بركة بنت ثعلبة – أم أيمن – مولاة لآمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ فكانت تلطفه وتقوم عليه فورثها .. وكان يقول لها :

يا أمه .

وكان ينظر إليها ويقول ﷺ :

هذه بقية أهل بيتى .

وكان يشير إلى أم أيمن ويقول : من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة

فليتزوج أم أيمن ..

فتقدم زيد بن محمد وتزوجها .

واكترى زيد من رجل بغلا من الطائف اشترط عليه الكرى أن ينزله حيث شاء فمال به إلى خربة وقال له :

انزل .

فنزل زيد بن محمد فإذا فى الخربة قتلى كثيرة . فلما أراد الكرى أن يقتله قال زيد :

دعنى أصلى ركعتين .

فقال الكرى :

صلى فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئا .

فلما صلى زيد بن محمد أتاه الكرى ليقتله فقال زيد :

ياأرحم الراحمين .

فسمع صوتا يقول :

لا تقتله .

فهاب الكرى ذلك وخرج يطلب صاحب الصوت فلم ير شيئا .. فرجع إلى زيد بن محمد فنادى :

ياأرحم الراحمين .

فسمع صوتا يقول : لا تقتله .

فدار الكرى حول نفسه وأخذ يبحث عن صاحب الصوت فلم يرشيئا .. ولما كانت الثالثة يقول زيد بن محمد : فإذا أنا بفارس على فرس فى يده حربة فى رأسها شعلة من نار فطعن الكرى بها فأنفذه من ظهره فوقع ميتا .

ثم قال الفارس لزيد بن محمد :

لما دعوت المرة الأولى : ياأرحم الراحمين كنت فى السماء السابعة فلما دعوت الثانية : ياأرحمن الراحمين كنت فى السماء الدنيا فلما دعوت فى المرة الثالثة : ياأرحم الراحمين أتيتك .

ورزق الله أم أيمن مولودا فسماه زيد أسامة فكنى أبا أسامة .

ولما بايع الأنصار سول الله ﷺ عند العقبة .

وهاجر أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى يثرب .. ونزل أبو أسامة على كلثوم بن الهدم ثم هاجر رسول الله ﷺ وبنى مسجده وحجراته .. ثم دخل دار أبى طلحة زوج أم سليم وأرسل إلى مائة رجل من أصحابه خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار وقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين .

فكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن محمد أخوين - وقيل زيد وأسيد بن حضير - .

وبعث رسول الله ﷺ أبا أسامة وأبا رافع مولى النبى عليه الصلاة والسلام إلى مكة فحمل أبو رافع فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوجته سودة بنت زمعة وحمل زيد بن محمد امرأته بركة بنت ثعلبة وابنه أسامة وحمل عبد الله بن أبى بكر أم رومان امرأة أبى بكر وعائشة بنت أبى بكر وأسماء بنت أبى بكر فهاجروا جميعا من مكة إلى مدينة رسول الله ﷺ .

ويوم بدر كان مع أصحاب رسول الله ﷺ سبعون بعيرا يعتقبونها فكان رسول الله ﷺ ومرثد بن أبى مرثد وعلى بن أبى طالب يعتقبون بعيرا فقال مرثد وعلى : يارسول الله نحن نمشى عنك .

فقال رسول الله ﷺ :

« ما أنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

وهزم الله المشركين .. وسار رسول الله ﷺ وأصحابه يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى . ولما نزل النبى عليه الصلاة والسلام الأثيل بعث أبا أسامة وعبد الله بن رواحة يبشران الناس بالمدينة .

فقدم زيد بن محمد على ناقة رسول الله ﷺ القصواء فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو جهل بن هشام وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وأمية بن خلف وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

وركب الخوف سادات قريش عقب بدر فكانوا يسلكون طريقا أخرى من جهة العراق .. فخرج عير لهم فيه أموال كثيرة جدا من تلك الطريق يريدون

الشام وفى ذلك العير من أشراف قريش : أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعبد الله بن أبى ربيعة وحوَيطب بن عبد العزى واستأجروا رجلا - كان ممن هرب من أسارى بدر - يدلهم على الطريق الجديد ..

ولما علم النبى عليه الصلاة والسلام بأمر تلك العير بعث رسول الله ﷺ زيد بن محمد أميراً فى مائة رجل من أصحابه - كانت أول سرية لأبى أسامة - فصادف زيد تلك العير على القردة - اسم ماء - فأصاب العير وأفلب أبو سفيان بن حرب ومن معه وأسر أبو أسامه دليل العير .

وقدم زيد بن محمد بتلك العير ودليلها على رسول الله ﷺ فخمسها فبلغ الخمس ماقيمته عشرون ألف درهم . وأتى بذلك الدليل إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقيل له : **« إن تسلم تترك - من القتل - »**

.. فأسلم .. وتركه رسول الله ﷺ وحسن إسلامه .

وشهد أبو أسامة مع النبى عليه الصلاة والسلام غزوة أحد وثبت بجانبه عندما فر كثير من الناس فقد كان من الرماة المذكورين .

وأراد رسول الله ﷺ أن يعلم خبر سعد بن الربيع فقال :

« هل من رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء أم فى الأموات ؟ فإنى رأيت الأسنة قد شرعت إليه » .

فقال زيد بن محمد :

أنا انظر لك يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ :

« أن رأيت سعد بن الربيع فأقره منى السلام وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ » .

فانظلق أبو أسامة فوجد سعد بن الربيع جريحا وبه بقية روح فقال له : ان رسول الله ﷺ أمرنى أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟.

فقال سعد بن الربيع :

أنا فى الأموات قد طعنت اثنتى عشرة طعنة وإنى قد أنفذت مقاتلى فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام وقل له : إن سعد بن الربيع

يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : ان سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف - شفر يطرف أى يتحرك -

و لم يبرح زيد بن محمد مكانه حتى صعدت روح سعد بن الربيع إلى بارئها فى عليين .. فرجع إلى أبى القاسم ﷺ فأخبره خبره .

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى المدينة ركب فرسه وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى فلما كانوا بأصل أحد اصطف الرجال صفوفا خلف رسول الله ﷺ وخلفهم أربع عشرة امرأة .. يقول أبو أسامة :

أثنى رسول الله ﷺ على ربه عز وجل ثم قال : « **اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت** » .

وهاجر جبلة بن حارثة فقدم مدينة رسول الله ﷺ فصحبه أخوه أبو أسامة إلى رسول الله ﷺ فنطق شهادة الحق .. فسأله بعض الصحابة : من أبكر سنا أنت أم زيد ؟ .

فقال جبلة بن حارثة :

زيد أكبر منى وأنا ولدت قبله .

إن جبلة بن حارثة يعنى أن أخاه زيد بن محمد أفضل منه لسبقه للإسلام .

وتقدم إلى زينب جحش كثير من أصحاب رسول الله ﷺ فبعثت أختها حمنة بنت جحش إلى رسول الله ﷺ تستشير لها النبى عليه الصلاة والسلام فقال :

« **فأين هى ممن يعلمها كتاب الله وسنة نبيها ؟** » .

فتساءلت زينب بنت جحش : من ؟ .

قال رسول الله ﷺ :

« **زيد بن محمد** » .

فغضبت زينب بنت جحش وقالت :

تزوج ابنة عمتك مولاك ؟.

فنزل قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾[1].

فبعثت زينب بنت جحش مذكور العذرى إلى النبى ﷺ وقالت :

زوجنى من شئت يانبى الله ..

فزوجها الصادق المصدوق - ﷺ - زيد بن محمد .

ولكن زينب بنت جحش لم تنس أنها الشريفة الحسناء وأن أبا أسامة كان مولى فأعتقه رسول الله ﷺ وخلع عليه اسمه فأصبح زيد بن محمد .. وشكا زيد للنبى عليه الصلاة والسلام أكثر من مرة ما يجد من سوء معاملة زينب بنت جحش ولكن أبا القاسم ﷺ كان يقول له : « **أمسك عليك زوجك واتق الله** » .

فقال زيد بن محمد : يارسول الله أفارقها؟ .

فقال النبى ﷺ :« **احبس عليك زوجك** » .

ويوم الخندق كان لواء المهاجرين مع زيد بن محمد ولواء الأنصار مع سعد بن معاذ ولما نقضت بنو قريظة عهد رسول الله ﷺ وخيف على النساء والذرارى من بنى قريظة بعث رسول الله ﷺ سلمة بن أسلم فى مائتى رجل من أصحابه وأبا أسامة فى ثلثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير ليلقوا الرعب فى قلوب بنى قريظة الذين خانوا عهدهم .. وهزم الله الأحزاب ..

وجاء زيد بن محمد النبى عليه الصلاة والسلام فقال له : يانبى الله ان زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل وإنى أريد أن أطلقها .

فقال رسول الله ﷺ : « **أمسك عليك زوجك واتق الله** » .

وذهب رسول الله ﷺ إلى أبى أسامة يوما فأبصر زينب بنت جحش وكانت جميلة جسيمة من أتم نساء قريش فهويها وقال : « **سبحان الله مقلب القلوب** » .

فسمعت زينب بنت جحش بالتسبيحة .. ولما رجع زيد بن محمد قالت

(١) الأحزاب : ٣٦ .

له زينب بنت جحش : إن رسول الله ﷺ أتى منزلك .

فتساءل أبو أسامة : ألا قلت له أن يدخل ؟ .

قالت زينب بنت جحش : قد عرضت ذلك عليه فأبى .

فقال زيد بن محمد : فسمعت شيئا ؟ .

قالت زينب بنت جحش : سمعته حين ولى تكلم بكلام ولا أفهمه .

فتساءل أبو أسامة : ماذا قال ﷺ ؟.

قالت زينب بنت جحش : سمعته يقول :

سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب .

فذهب زيد بن محمد إلى أبى القاسم ﷺ وقال له : يارسول الله ائذن لى فى طلاقها فإن فيها كبرا - فيها غلظة قول وعصيان أمر وأذى باللسان وتعظم بالشرف - تعظم على وتؤذينى بلسانها .

ونزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾[1].

تقول أم المؤمنين عائشة :

لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ يعنى بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق .

ووقع فى نفس أبى أسامة أن يطلق زينب بنت جحش .. فطلقها .

فلما انقضت عدة زينب بنت جحش بعث إليها رسول الله ﷺ يخطبها إلى نفسها ثم تزوجها وكان الذى زوجها منه رب العالمين تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾[2].

لم يسم الله تبارك وتعالى أحدا من أصاب رسول الله ﷺ وأصحاب غيره من الأنبياء إلا زيد بن حارثة فهل هناك تكريم أفضل ممن صار اسمه قرآنا يتلى

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

(٢) الأحزاب : ٣٧ .

مخلدا لا يبيد يتلوه أهل الدنيا إذا قرأوا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدا لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين فإسم زيد فى الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة .

وخاضت ألسنة المنافقين فقالوا : محمد يحرم بنت الولد وقد تزوج امرأة ابنه .

فنزل قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾(1).

أى زيد بن محمد ليس بابنه حتى تحرم عليه حليلته ولكنه ﷺ أبو أمته فى التبجيل والتعظيم فمحمد ﷺ لم يكن أبا أحد من أصحابه المعاصرين له – كان له ذكور : القاسم والطيب والمطهر وإبراهيم ولم يعش له ابن حتى صار رجلا – .

ونزل قوله تعهالى : ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾(2).

فرجع زيد إلى اسم أبيه حارثة أى اسمه الأول زيد بن حارثة .. فحزن زيد بن حارثة حزنا شديدا لإنقطاع نسبه برسول الله ﷺ .

وعلم رسول الله ﷺ أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام فبعث زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب ليعترضها وكان فيها أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ فقدم أبو أسامة بتلك العير مدينة رسول الله ﷺ فاستجار أبو العاص بزوجته زينب فأجارته ونادت فى الناس حين صلى رسول الله ﷺ الفجر – أى دخل فى الصلاة هو وأصحابه – فقالت : أيها الناس انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته أقبل على الناس وقال : هل سمعتم ماسمعت ؟.

---

(1) الأحزاب : ٤٠ .

(2) الأحزاب : ٥ .

قالوا : نعم :

قال رسول الله ﷺ :

« أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء من هذا » .

ثم انصرف ﷺ فدخل على ابنته زينب وقال لها : قد أجرنا من أجرت .

ثم قال نبى الرحمة ﷺ : **« المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم – ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر أى أزال خفارته أى نقض جواره وعهده فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .**

ثم دخلت زينب على أبيها ﷺ فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه فأجابها إلى ذلك وقال ﷺ : **« أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له – لتحريم نكاح المؤمنات على المشركين » –**

وبعث النبى عليه الصلاة والسلام لزيد بن حارثة ورجال سريته :

« إن هذا الرجل – يعنى أبا العاص بن الربيع – منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالافان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فى الله الذى فىء عليكم فأنتم أحق به » .

فلما رأوا رجال السرية رغبة رسول الله ﷺ فى رد المال إلى أبى العاص قالوا : يارسول الله بل نرد عليه .

وردوا إلى أبى العاص بن الربيع ماأخذوا منه .

ولما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى بنى المصطلق استخلف زيد بن حارثة على المدينة .. وشهد أبو أسامة مع أبى القاسم ﷺ صلح الحديبية .

وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفه الكلبى إلى قيصر ملك الروم فلما قدم عليه أجازه بمال وكساه فأقبل بذلك فلما وصل جذام – محل يسمى حسمى وهو موضع وراء وادى القرى – لقيه الهنيد وابنه فى ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وسلبوا مامعه ولم يتركوا عليه الاثوبا خلقا فسمع بذلك نفر من جذام من بنى الضبيب – ممن أسلم منهم – فنفروا إليهم واسستنقذوا لدحية ما أخذ منه وقدم دحية على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك . فبعث خاتم الأنبياء

ﷺ زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل ورد معه دحية بن خليفه الكلبى .

وكان أبو أسامة يسير بالليل ويكمن بالنهار ومعه دليل من بنى عذرة فأقبل حتى هجم على القوم – على الهنيد وابنه ومن كان معهم – مع الصبح فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهم وأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاء خمسة آلاف ومن السبى مائة من النساء والصبيان .

ولما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد بن حارثة ركبوا وجاءوا إليه فقال رجل منهم : أنا قوم مسلمون .

فقال له أبو أسامة : اقرأ أم الكتاب ..

فقرأها الرجل .

ثم قدم جماعة من بنى الضبيب على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر وقال بعضهم : يارسول الله لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما .

فقال الصادق المصدوق ﷺ : **« كيف أصنع بالقتلى ؟ »** .

فقالوا : أطلق من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمى هاتين .

فقال رسول الله ﷺ : **« صدق »** .

فقالوا : ابعث معنا رجلا لزيد أن يخلى بينهم وبين حرمهم وأموالهم .

فبعث أبو القاسم ﷺ أبا الحسن يأمر زيد بن حارثة أن يخلى بينهم وبين حرمهم وأموالهم فقال على بن أبى طالب : يارسول الله أن زيدا لا يطيعنى .

فقال رسول الله ﷺ : **« خذ سيفى هذا »** .

فأخذه على بن أبى طالب وتوجه مع بنى الضبيب فلقى أبو الحسن رجلا أرسله زيد بن حارثة مبشرا على ناقة من ابل القوم فردها على بن أبى طالب على القوم وأردفه خلفه ولقى أبا أسامة فأبلغه أمر رسول الله ﷺ فتساءل أبو أسامة : ماعلامة ذلك ؟ .

فقال على بن أبى طالب : هذا سيفه ﷺ .

فعرف زيد بن حارثة السيف فصاح بالناس .. فاجتمعوا فقال : من كان معه شيء فليرده فهذا سيف رسول الله ﷺ

فرد الناس كافة كل ما أخذوه .

وخرج زيد بن حارثة مع النبى عليه الصلاة والسلام وشهد فتح خيبر ..

وبعث رسول الله ﷺ أبا أسامة – كان معه ضميرة مولى على بن أبى طالب وكذا أخوه – فى سرية إلى مدين – قرية شعيب عليه السلام – تجاه تبوك فأصاب سبيا ففرق رجال السرية فى بيعهم بين الأمهات والأولاد فلما قدموا مدينة رسول الله ﷺ خرج أبو القاسم ﷺ عليهم وهم يبكون فتساءل : **« مالهم ؟ »** .

قالوا : يارسول الله ﷺ فرق بينهم – بين الأمهات والأولاد – .

فقال نبى الرحمة ﷺ : **« لا تبيعوهم إلا جميعا »** .

وخرج زيد بن حارثة مع رسول الله ﷺ يوم عمرة القضية .. ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة تبعته عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب تنادى : ياعم ياعم .

تناول على بن أبى طالب يد ابنة عمه حمزه وقال لفاطمة الزهراء : دونك ابنة عمك .

فحملتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ .. فاختصم فى عمارة بنت حمزة على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب .. فقال أبو الحسن : أنا أخذتها وهى ابنة عمى .

وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى وخالتها تحتى – أمهاسلمىبنت عميس وأسماءبنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب – .

وقال زيد بن حارثة : ابنة أخى – أخى رسول الله ﷺ بين حمزة وزيد– وأنا وصيه

فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ قضى بها لجعفر بن أبى طالب وقال : **« الخالة بمنزلة الأم »** .

وقال أبو القاسم ﷺ لعلى بن أبى طالب : **« أنت منى وأنا منك »** .

وقال الصادق المصدوق ﷺ لجعفر بن أبى طالب : **« أشبهت خَلقى وخُلقى »** .

وقال خاتم الأنبياء ﷺ لزيد بن حارثة :

« **أنت أخونا ومولانا** » .

وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى طلحة ...

وأقبلت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وأمها أروى بنت كرز بن ربيعة مهاجرة إلى مدينة رسول الله ﷺ . فخطبها الزبير بن العوام وزيد بن حارثة وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص فاستشارت أخاها لأمها عثمان بن عفان فقال لها : اذهبى إلى رسول الله ﷺ

فأتته فأشار عليها بزيد بن حارثة ..

فتزوجته وولدت له زيد بن زيد ورقية بنت زيد .

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى خيل إلى نجد فجاء برجل من بنى حنيفة يقال ثمامة بن أثال الحنفى – كان عرض لرسول الله ﷺ وأراد قتله – فأمر النبى عليه الصلاة والسلام فربط إلى عمود من عمد المسجد .. وخرج رسول الله ﷺ فقال :

« **مالك ياثمام هل أمكن الله منك ؟** » .

فقال ثمامة بن أثال الحنفى : قد كان ذلك يامحمد أن تقتل تقتل ذا دم وإن تعف تعف عن شاكر وإن تسأل مالا تعطه

فتركه رسول الله ﷺ .

يقول أبو هريرة : فجعلنا المساكين نقول بيننا : ما نصنع بدم ثمامة والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

فلما كان الغد مربه رسول الله ﷺ فقال : « **مالك ياثمام ؟** » .

قال ثمامة بن أثال الحنفى : خير يامحمد ان تقتل تقتل ذا دم وإن تعف تعف عن شاكر وإن تسأل مالا تعطه .

فقال رسول الله ﷺ : « **أطلقوه** » .

ففك أصحاب رسول الله ﷺ وثاقه .. فقال النبى عليه الصلاة والسلام :

« **فقد عفوت عنك ياثمام** » .

فلم يصدق ثمامة بن أثال أذنيه .. فخرج حتى أتى حائطا – بستانا – من حيطان المدينة فاغتسل فيه وتطهر وطهر ثياهب .. ثم جاء النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فقال :

يا محمد لقد كنت و وجه أبغض إلى من بلدك ثم لقد أصبحت

وما وجه أحب إلى من وجهك ولا دين أحب إلى من دينك ولا بلد أحب إلى من بلدك وإنى أشهد أن لا آله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله يا رسول الله إنى كنت خرجت معتمرا وأنا على دين قومى فأسرنى أصحابك فى عمرتى فسيرنى صلى الله عليك فى عمرتى .

فسيره أبو القاسم ﷺ فى عمرته إلى مكة وعمله .

فخرج معتمرا فلما قدم ثمامة بن أثال الحنفى مكة ارتفع صوته ملبيا : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

فلما سمعته قريش يتكلم بأمر محمد ﷺ قالوا : صبأ ثمامة .

فقال ثمامة بن أثال الحنفى :والله ماصبوت ولكننى أسلمت وصدقت محمداً ﷺ وآمنت به والذى نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة – من الحنطة – من اليمامة ..

وكانت اليمامة ريف أهل مكة .

يقول سلمة بن الأكوع : غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات يؤمره رسول الله ﷺ علينا .

وقالت أم المؤمنين عائشة : مابعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمره عليهم ولو بقى بعده استخلفه .

وطلق زيد بن حارثة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط .

وكان زيد بن حارثة رجلا قصيرا آدم شديد الأدمة فى أنفه فطس . وكان شجاع القلب ثابت الجنان فى الحروب . وسأل رسول الله ﷺ أبا أسامة يوما : « **تزوجت يازيد ؟** » .

قال زيد بن حارثة : لا .

قال رسول الله ﷺ : « **تزوج تزد عفة إلى عفتك ولا تزوج خمسة : شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتا** » .

فقال أبو أسامة : يارسول الله لا أدرى مما قلت شيئا وأنا باحداهن جاهل .

قال أبو القاسم ﷺ : « **ألسم عربا ؟ أما الشهبرة فالطويلة المهزولة وأما اللهبرة فالزرقاء البذية وأما النهبرة فالقصيرة الدميمة وأما الهيـدرة فالعجوز**

المدبرة وأما اللفوت فهى ذات الولد من غيرك – الثيب – » .

وتزوج زيد بن حارثة درة بنت أبى لهب ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام أخت الزبير بن العوام .

وبعث رسول الله ﷺ وسلم الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى هرقل عظيم الروم بالشام فلما نزل الحارث مؤتة – موضع معروف عند الكرك – تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى – من أمراء قيصر على الشام – فسأله : أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد ؟ .

قال الحارث بن عمير : نعم .

فأوثقه شرحبيل بن عمرو الغسانى ربطا ثم قدمه فضرب عنقه .. ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غير الحارث بن عمير الأزدى ..

فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك اشتد عليه الأمر فجهز جمعا من أصحابه وعدتهم ثلاثة آلاف ثم قال وأمر عليهم زيد بن حارثة

ان أصيب زيد فجعفر

بن أبى طالب على الناس وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ثم أردف : فإن أصيب ابن رواحة فليرتضى المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم .

وقد حضر ذلك المجلس النعمان بن فنحص رجل من يهود فقال : ياأبا القاسم ان كنت نبيا يصاب جميع من ذكرت لأن الأنبياء عليهم السلام من بنى إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلا على القوم وقال : ان أصيب فلان فلابد أن يصاب – أن يقتل – ولو عد مائة أصيبوا جميعا .

ثم صار النعمان بن فنحص يقول لأبى أسامة : اعهد – أوصى – فلن ترجع إلى محمد أبدا أن كان نبيا .

فقال زيد بن حارثة :

أشهد أنه نبى صادق بار ﷺ .

وعقد رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدى ويدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا والا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وودعهم الناس وقالوا لهم :

صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وخرج رسول الله ﷺ مشيعا حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال : **« أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا اغزوا بسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ولا تقطعوا شجرة ولاتهدموا بناء »** .

ومضى جيش المسلمين حتى نزل معان من أرض الشام فبلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل مآب بأرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليه من قبائل العرب – المتنصرة والمستعربة – أى من بنى بكر ولخم وجذام مائة ألف ومعهم من الخيل والسلاح ماليس مع المسلمين . فنزل المسلمون فى هذا المحل – أقاموا فى معان ليلتين ينظرون أمرهم – وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ولكن عبد الله بن رواحة شجعهم وقال لهم :

ياقوم والله ان الذى تكرهون للذى خرجتم له خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولا كثرة مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به فإنما هى أحدى الحسنيين : اما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس :

صدق والله ابن رواحة .

ومضى المسلمون للقتال فلقيتهم جموع الروم والعرب فإنحاز المسلمون إلى مؤتة والتقى الجمعان عند مؤتة فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ وناجز العدو فى معركة لا تكافؤ فيها ولكن أبا أسامة قاتل صادق الإيمان عظيم الهمة حتى شاط فى رماح بنى الأصفر فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل الروم حتى قتل .

فقال رسول الله ﷺ وهو بين أصابه :

« أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل

بها حتى قتل شهيدا ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا »

ثم صمت النبى عليه الصلاة والسلام حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض مايكرهون .. ثم قال ﷺ :

« اخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً » .

ثم قال ﷺ :

« لقد رفعوا إلى الجنة » .

ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالدمع وقال :

« اللهم اغفر لزيد اللهم اغفر لزيد اللهم اغفر لزيد » .

ثم قال ﷺ :

اللهم اغفر لجعفر اللهم اغفر لعبد الله بن رواحة » .

وأتى رسول الله ﷺ أهل زيد بن حارثة فبكت ابنة له فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب فتساءل سعد بن عبادة زعيم الخزرج : يارسول الله ماهذا ؟ .

فقال رسول الله ﷺ :

« هذا شوق الحبيب إلى الحبيب » .

استشهد زيد بن حارثة عن خمس وخمسين سنة .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُمَا عَلِمْتُ لَكُم مِن آله غَيْرى فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَطلعُ الَى آلهِ مُوَسَى وانّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[1] صدق الله العظيم .

(١) القصص : ٣٨ .

هامان

كان فرعون ملك مصر وكان ملكا طاغيا مغرورا بغى وتكبر .. وقال :
﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾[1]

فسكت أقباط مصر .. فعاد يقول :

ليس لكم آله غيرى .

وأطاعه أهل مصر وصدقوه ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾[2] وكانوا يعبدونه من دون الله .

وكان هامان – من القبط – وزير فرعون وكان بينهما مشابهة كثيرة من كبر وأنفة وغرور وحمق وعناد وكان بمصر جماعات من بنى إسرائيل ظلمهم فرعون وأخذ يستعبدهم ويستخدمهم فى الأعمال الشاقة ..

وأراد العزيز الرحيم أن ينقذ بنى إسرائيل من كيد فرعون وهامان فبعث موسى عليه السلام إلى فرعون: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾[3].

فقال كليم الله :

يارب انى أخاف منه .

فقال عز وجل : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾[4].

فتوجه كليم الله وأخوه هارون إلى فرعون فدخلا قصره وقصدا إلى حيث يجلس على عرشه وحوله هامان والقواد والحشم والجنود والجبارون والرؤساء فقال موسى عليه السلام :

﴿ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[5].

---

(١) النازعات : ٢٤ .
(٢) الزخرف : ٥٤ .
(٣) النازعات : ١٧ .
(٤) طه : ٤٢ .
(٥) الأعراف : ١٠٤ .

نظر هامان إلى موسى عليه السلام فى دهش لماذا سبق إلى الكلام ؟ لماذا لم ينتظر حتى يسأله هو أو يحدثه أحد من الحاضرين ؟ كيف تجرأ وخاطب الآله المعبود : يافرعون ... ؟ لماذا لم يسجد بين يديه ؟ لماذا لم يظهر له آيات الولاء والطاعة والخشوع ؟ لماذا لم يقل له : يامولاى ؟ أليس موسى رجلا من بنى إسرائيل ؟ ماذا يعنى برب العالمين ؟ هل هناك رب غير فرعون ؟ .

قال فرعون وهامان والحاشية من حولهما : هل معك دليل وآية ؟ .

قال موسى عليه السلام : نعم

قالوا :

﴿ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

فألقى كليم الله عصاه فإذا هى حية ضخمة راحت تزحف نحو فرعون وهامان وحاشيته فاغرة فاها .. فارتعدوا وخافوا وأصابهم ذعر شديد . وكان موسى عليه السلام أسمر شديد السمرة فأدخل يده فى جيبه – فتحة قميصه التى على الصدر – ثم أخرجها فإذا هى بيضاء لامعة تتلألأ كالقمر ليلة البدر لها نور ساطع يضىء مابين السماء والأرض .. ثم إذا ردها عادت إلى مثل سائر بدنه وأمسك الحية فتحولت إلى عصا .

نظر فرعون وهامان إلى الكهنة ورجال الدين الذين كانوا يعملون بالسحر أليس ما جاء به موسى عليه السلام سحراً ؟ إن ما جاء به كليم الله شىء خطير يهدد سلطان ومكانة فرعون هل هناك آله حقيقى هو رب العالمين ؟ تبادل فرعون وهامان النظرات .. الملك والسلطان والجاه مهدد بالزوال ..

تساءل فرعون : ماذا ترون ؟.

فقال هامان والكهنة :

﴿ انَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

إن موسى عليه السلام علم بالسحر ..فقال فرعون : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذا تَأْمُرُونَ ﴾[3]؟..

---

(١) الأعراف : ١٠٦ .
(٢) الأعراف : ١٠٩ .
(٣) الأعراف : ١١٠ .

لماذا عمد فرعون إلى التمسح بأذيال الحاضرين ومداهنتهم ؟ يريد أن يشركهم فى الأمر ؟ يتبادل معهم الشورى ؟ منذ متى كان يشركهم فى أمر ؟ أنسى أنه ربهم الأعلى ؟ بهره سلطان معجزة موسى عليه السلام ؟ قال هامان : مولاى الآله : احبسهما وابعث رجالك فى المدائن يأتوك بل ساحر عليم .

لماذا لا يؤجل النظر فى شأن كليم الله وأخيه هارون ويرسل إلى أنحاء البلاد من يجمع له السحرة ؟ .

قال فرعون لموسى عليه السلام :

﴿ اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ ﴾[1].

قال كليم الله :

﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾[2].

لماذا اختار موسى عليه السلام يوم العيد يوم إجتماع الناس وزينتهم ؟ حتى يشيع الحق وينبلج انبلاج النهار ؟ هل سيبطل السحرة كيد موسى ؟.

وأقبل كبار السحرة من مشارق البلاد ومغاربها واجتمعوا فى يوم عيد كان المصريون فيه يحتفلون بنهر النيل وسمعوا بموسى وهارون والحية الضخمة التى كادت تبتلع فرعون .

ولقى رئيس السحرة – شمعون – موسى عليه السلام فقال له : يا موسى سآتيك غداً بسحرٍ عظيم لا يغلبه سحر .

فتساءل كليم الله : لئن غلبتك لتؤمنن بى ؟.

قال رئيس السحرة : نعم والله إن غلبتنى ياموسى لأشهد أنك على حق .

ودخل السحرة على فرعون يتقدمهم رئيسهم فسجدوا له ثم وقفوا بين يديه فقال رئيسهم :

﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾[3]؟.

كانوا تسعمائة وكان معهم حبال وعصى يحملها ثلاثمائة بعير لماذا ألزموا

---

(١) طه : ٥٨ .

(٢) طه : ٥٩ .

(٣) الأعراف : ١١٣ .

فرعون أن يجعل لهم مالا ان غلبوا ؟ كانوا يخشون موسى عليه السلام ؟ كانوا على يقين أن فرعون لن يعطيهم جائزة ومالا ؟ .

قال فرعون :

﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[1].

لماذا وعد فرعون السحرة أن يغدق عليهم الأموال ؟ لماذا وعدهم بأرق المناصب والمنزلة الرفيعة لديه ؟ لماذا زادهم على ماطلبوا ؟ كان يساوره الشك فى أنهم سيقضون على دعوة موسى ؟.

تلفت موسى عليه السلام فرأى حشدا هائلا من السحرة فإقترب منهم وقال لهم : الويل لكم ان افتريتم الكذب على الله فدعوتم معجزاته سحراً و لم تصارحوا فرعون بالنور الساطع والحق القاطع فتظهروا له مابين سحركم واعجازى وتفرقوا بين باطلكم وحقى .

وأقبل الناس مدفعون بالرجاء فى نصرة السحرة هل رسخ فى نفوسهم من الضلالة وغلب على قلوبهم من الجهالة فسلبهم سلامة التقدير وصحة التصوير ؟.

وقف السحرة وقفة رجل واحد مشمرين عن سواعدهم مزهوين بغرورهم ليكون ذلك أدعى إلى تسرب الخوف إلى موسى عليه السلام وأخيه هارون وبث المهابة فى نفوس من حضر الحفل العظيم ساعة الضحى من يوم العيد يوم يتبارى القرنان ويتساجل الخصمان ؟ .

قال شمعون رئيس السحرة لموسى عليه السلام :

﴿ يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾[2].

قال موسى عليه السلام :

﴿ أَلْقُوا ﴾[3]؟.

لماذا قال كلمة واحدة فى اقتضاب ؟ هل ركبه الخوف ؟ على يقين أنهم

---

(١) الأعراف : ١١٤ .
(٢) الأعراف : ١١٥ .
(٣)الأعراف : ١٦٦ .

لن يغلبوا ربه ولن يبطلوا آياته ؟ يهدد السحرة ؟ يحذرهم مما سيحل بهم من الإفتضاح؟. .

فألقى السحرة حبالهم وعصيهم .. سحروا أعين الناس استرهبوهم وجاءوا بسخر عظيم من التمويه الذى جرى مجرى الشعوزة وخفة اليد وخيل لموسى عليه السلام أن الحبال والعصى صارت حيات على الأرض تسعى هل هذا وهم تسلل إلى خلجات نفسه ؟ هل سيؤخذ الناس بهذا الظاهر المموه والباطل المشوه ؟ كيف يتركهم ينصرفون عن دعوته مدبرين ؟ .

أوحى الله عز وجل إلى كليمه :

« لا تخف إنك أنت الأعلى » .

هدأت نفس موسى عليه السلام أدرك أن العليم القدير قد حماه ورعاه ؟ لم يحفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها وألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا هى من أعظم الحيات فلما فتحت فاها صار شدقها ثمانين ذراعا واضعة فكها الأسفل على الأرض وفكها الأعلى عى سور القصر وقصدت فرعون لتبتلعه فوثب من سريره وفر هامان واستغاث فرعون بموسى .. وراحت الحية تبتلع بسرعة ما ألقى السحرة من حبال وعصى ..

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾(1) أدرك السحرة الحقيقة الرائعة ؟ تبينوا الرشد من الضلال والحق من الخيال ؟ لماذا خروا ساجدين ؟ توبة عما صنعوا ؟ خشوعا لهيبة القوى القدير واكبارا لذلك الأمر الخطير ؟ فضحوا فرعون أمام الملأ ؟ .

غلت مراجل الحقد فى صدر فرعون وهامان .. كان فرعون حريصا على تقوية سلطانه ولكن قومه انقلبوا أذلاء مقهورين مغلوبين وقد آمن السحرة بعد أن ابتلعت الحية العظيمة حيات السحرة ولم تترك منها شيئا وبقيت كما هى .. ثم عادت عصا موسى كما كانت .. لقد أدرك السحرة وهم أعلم الناس بالسحر أن ما جاء به موسى ليس سحرا ؟ أدركوا أنها معجزة لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها وتأكدوا

---

(1) الأعراف : ١١٩ - ١٢٢ .

أن موسى عليه السلام رسول صادق ؟ همس هامان فى أذن فرعون : انهم اتفقوا على مولاى الآله .

فقال فرعون للسحرة :

﴿ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُون * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُم وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١).

جمع فرعون السحرة واستعان بهم ليبطل سحر موسى أمام الناس ولكن موسى أبطل كيدهم فلم يملكوا إلا الإذعان للحق والإيمان به ؟ جرت بينهم وبينه مواطأة ليستولوا على مصر ؟ صار السحرة مع موسى وفرعون بعد أن كانوا مع فرعون ؟.

راح فرعون يهددهم واتهمهم بالتواطؤ مع موسى وأخيه ورماهم بالخيانة : سوف أنتقم منكم وسأعذبكم عذابا شدايدا .

كانوا يعلمون أن تهديدا وحشيا وعذابا شديدا ينتظرهم من طاغية جبار متكبر وأن الرجل منهم ستقطع يده اليمنى ورجله اليسرى أو تقطع رجله اليمنى ويده اليسرى أو يقتل بعضهم ويشده إلى جذوع النخل من غير طعام أو شراب لكن أيظن أن تهديده ووحشيته سيرد هؤلاء السحرة ومن آمن معهم بموسى عليه السلام وسيرجعهم إلى الكفر ؟ يعودون إلى عبادة بشر مثلهم ؟ .

قال السحرة فى ثبات وإيمان :

﴿ انَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾(٢).

بعد أن جاءوا يطلبون من فرعون المال والجوائز والمنزلة صاروا يسخرون منه ويحتقرونه ؟ ألم يؤثر فيهم وعيده وتهديده ؟ دخل الإيمان قلوبهم ؟ .

قال فرعون فى غضب :

سوف تعلمون مايصيبكم .

لم يهتم السحرة بتعذيب فرعون ولم يسألوا الله أن ينقذهم ولكنهم طلبوا من ربهم أن يقويهم حتى يصبروا على العذاب ويتحملوه وقالوا :

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) الأعراف : ١٢٥ .

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتوفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[1] أمر فرعون وزيره هامان فأخذ السحرة فقطعم وصلبهم على شاطىء النهر .

قال هامان والملأ من قوم فرعون : أيها الآله : أتترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض وقد تركوك أن يعبدوك ؟.

قال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[2] بعد أن سلط فرعون وزيره هامان وقارون وأعوانه وجنوده على المؤمنين يقتلون أبناءهم ويتسحيون نساءهم ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾[3] قال فرعون : اتركونى .. دعوا موسى لا تقتلوه أنتم بل إننى أنا الذى سأتولى قتله .

هل اعترض أحد فرعون ؟ هل حال أحد بينه وبين مايريد ؟ هل أراد فرعون شيئا يفعله بموسى ثم عرض له أحد دونه ؟ فزع فرعون إلى قوته وسلطانه بعد أن سقطت هيبته وحجته وبطل اتهامه ؟ أراد فرعون أن يتولى وحده أمر موسى ؟ هل أراد أن يظهر للناس أنه القادر على ماعجزت عنه السحرة مجتمعين ؟ إذا كان السحرة ومن معهم قد خافوا موسى وأسلموا له فإن فرعون سيقتله قتلا لا يخشى مامعه من سحر .. ثم قال فرعون فى صوت جهورى :

إنى لا أخشى رب موسى الذى يقول إنه رسول من عنده .. سأقتله فليلقانى وليدع ربه ليخلصه من يدى

لماذا رفع فرعون صوته هكذا ؟ ألا يكشف هذا القول عن خوف كان مستوليا على فرعون من موسى عليه السلام ؟ ألا ينم صوته المرتفع أن خطراً داهماً يتهدده من جهة كليم الله ؟ بعد أن رأى من المعجزات وعلم أن موسى عليه السلام يستند إلى قوة لا قبل لأحد بها ؟ هل يدرك فرعون أنه إذا أراد بموسى عليه السلام شراً لما استطاع ولأصابه بلاء عظيم ؟ يعرف أن كليم الله على حق ولكن الغطرسة والكبر وحب التسلط والسلطان جعله يؤثر ماهو

---

(١) الأعراف : ١٢٦ .
(٢) غافر : ٢٦ .
(٣) غافر : ٢٥ .

فيه من ضلال على هذا الحق الذى يدعى إليه ؟ .

ثم عاد فرعون فقال :

« ﴿ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمتُ لَكُمْ مِن آلهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَطَّلِعُ الَى إِلَهِ مُوسى وإِنِّى لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[1].

كان هامان من القبط فجمع وزير فرعون العمال من بنى إسرائيل – جمع خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء – وأمر بطبخ الأجر والجس ونشر الخشب وضرب المسامير فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه فكان بناء لم يبلغه بنيان منذ أن خلق الله السماوات والأرض فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه .

وصعد فرعون السطح ورمى نشابة نحو السماء فرجعت متلطخة بدماء فهلل فرعون : قتلت آله موسى ﴿ آنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[2].

كان فرعون ووزيره هامان مشركين آثمين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * الَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُوَن ﴾[3] لماذا خص الله عز وجل فرعون وهامان وقارون بالذكر ؟ لأن التدبير فى عداوة موسى عليه السلام كان مداره فرعون ملك مصر وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فماذا قالوا لكليم الله ؟ :

﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[4].

كذبوا بآيات موسى عليه السلام وكانت من كبار الآيات – التوراة والمعجزات – ﴿ وَلَقَدْ أتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾[5] وهى : العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فلما جاء كليم الله

---

(١) القصص : ٣٨ .
(٢) القصص : ٨ .
(٣) غافر : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) غافر : ٢٤ .
(٥) الأسراء : ١٠١ .

إلى فرعون بسلطان مبين – ما كان معه من آيات ومعجزات أعرض فرعون عن النظر فى هذه الآيات وقال وهو ينظر نحو وزيره هامان : ﴿ **سَاحِرٌ أَوْمَجْنُونٌ** ﴾[1].

وأمسك الله فى عهد فرعون نيل مصر عن الرى فكان القحط ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِن الثَّمَراتِ** ﴾[2].

قال القبط لفرعون :

أيها الملك : إن كنت ربنا فأجر لنا الماء .

فركب فرعون وأمر بجنوده قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز فرعون حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرع لله تعالى .. فأجرى الله له ماء نيل مصر .

فهل أفاق فرعون من غفوته وعرف سبيل الرشاد ؟ لقد بغى وتكبر .

ولما علم فرعون أن موسى قد خرج ببنى إسرائيل فإنطلق فرعون وقد جعل وزيره هامان على مقدمة جنوده فى ألفى ألف وستمائة ألف فأدركهم وقد جاوزوا البحر وكان فرعون على فرس أدهم فهاب دخول البحر ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق – شهى – فى صورة هامان وقال له : تقدم .

ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون وميكائيل يسوقهم لا يشذ منهم أحد فلما صار آخرهم فى البحر وهم أولهم أن يخرج ليلحق ببنى إسرائيل انطبق عليهم البحر ... فكانوا من المغرقين .

(١) الذاريات : ٣٩ .

(٢) الأعراف : ٣٠ .

المـراجـع

القرآن الكريم	
الجامع لأحكام القرآن	القرطبى
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
فى ظلال القرآن	سيد قطب
التفسير القرآنى للقرآن	عبد الكريم الخطيب
صفوة التفاسير	محمد على الصابونى
صحيح البخارى	
قصص الأنبياء	ابن كثير
الإصابة فى تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلانى
الإستيعاب فى معرفة الأصحاب .	ابن عبد البر
أسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابن الأثير
البداية والنهاية	ابن كثير
الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
تاريخ الطبرى	
مروج الذهب	المسعودى
دلائل النبوة	البيهقى
دلائل النبوة	أبو نعيم الأصبهانى
السيرة النبوية	ابن هشام

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٢/٨٥٧٧
الترقيم الدولى ١ - ٠٥ - ٥٣٨٧-٩٧٧-٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة .
الرقم البريدى — ١١٢٣١